آيات مظلومة بأقلام مسمومة

الدكتور

عمر بن عبد العزيز قريشي

أستاذ مساعد – قسم الأديان و المذاهب

كلية الدعوة الإسلامية – جامعة الأزهر



المقدمة

الحمد لله رب العاملين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد

فإنه قد ظهر في الآونة الأخيرة مركز مشبوه ، لا يدرى هويته ، يسمى بمركز "ابن خلدون" وابن خلدون منه براء ، وهو أقرب إلى أن يسمى مركز "ابن صهيون" لخدماته الجليلة التي يقدمها لليهود ، سواء أكان في المجال السياسي أو الديني ، ولقد تبنى المركز فكرة خطيرة ترتبط بوحدة الأديان ، وهي فكرة مجمع الأديان السابقة ، فألف أحد عناصر المركز البارزين كتاباً حواه فكرته التي جمع فيها بين الرسالات السماوية ، وسماه "مشروع التعليم والتسامح" واجتهد في أن يجعله منهجاً دراسياً لمادة الدين على مستوى المراحل التعليمية المختلفة "الابتدائية والإعدادية والثانوية" وعرضه على لجنة التعليم بمجلس الشعب التي قامت مشكورة مأجورة من الله تعالى ، برفض المشروع برمته لما فيه من كفر صراح ، وشرك بواح ، وحيث أراد صاحبه – زعماً – أن يحارب التطرف والإرهاب ، فإن مشروعه هذا سيشعلها ناراً لا يخمد لها أوار ، لتأكل الأخضر واليابس ، كما أن وزير التعليم – مشكوراً – رفض الفكرة بتاتاً ، وقام فريق من العلماء بالتصدي له ، وتسليط الأضواء عليه.

وكتابنا هذا يرد على أهم ما جاء في الكتاب من تحريف ، سيما ما ارتبط بالآيات القرآنية التي وضعت في غير موضعها ، وفسرت على غير وجهها ، ليكون امتداداً للكتابين السابقين ، وسمتيه "آيات مظلومة بأقلام مسمومة"

نسأل الله تعالى أن ينفع به ، وأن يرد بسببه كيد الكائدين لدين الله في نحورهم وأن يجعل في ذلك حتفهم ، وتكسير أقلامهم التي طالما تعدت على دين

الله ، وماذا يضير السحاب من نبح الكلاب ، فالكلاب تنبح والقافلة تسير ،

يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

سورة الصف

كتبه

أبو حفص

عمر بن عبد العزيز قريشي

التمهيد

القضايا التي ركز عليها مشروع مركز ابن خلدون "التعليم والتسامح" :

١- الإيمان بالكتب السماوية على ما هي عليه الآن.
٢- عدم التفرقة بين الرسل وعدم تفضيل رسول على رسول.
٣- الدعوة إلى محبة الكافرين ومودتهم باسم حب الخير.
٤- الدعوة إلى حب الوطن (مصر بالذات) أكثر من أي شيء آخر.
٥- التركيز على إذابة الفوارق بين الأديان ، فالكل مؤمن والكل مسلم.
٦- الاستهزاء بالعبادات في الإسلام أو التظاهر بها.
٧- تشويه التاريخ الإسلامي.
٨- لمز النبي ﷺ والتنقيص من قدره.
٩- إنكار سنة النبي ﷺ وعدم جواز الاستدلال بها ، سيما في أمور الغيب.
١٠- لا يجوز الحكم على أحد في الدنيا بالكفر ويجب إرجاؤه إلى الآخرة.
١١- إنكار شفاعة النبي ﷺ ، سيما لعصاة الأمة وعدم خروجهم من النار.
١٢- تأويل ما ورد من الشفاعة في القرآن على أنه العمل الصالح للإنسان.
١٣- التركيز على أن بني إسرائيل مصريون قلباً وقالباً ، مع منحهم الجنسية باسم القرآن.
١٤- الدعوة إلى القومية وعبادة الوطن.
١٥- الإسلام هو السلام ، والإيمان هو الأمن.
١٦- الجنة لكل مؤمن – بهذا المعنى – صالح من البشر ، توفر فيه الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً.
١٧- أنكر الحدود بحيث لا يجوز لأحد أن يحكم على أحد.
١٨- عدم التحاكم إلى شرع الله بإرجائه إلى يوم القيامة.
١٩- الدعوة إلى الإخاء الديني ، وعدم البراءة من الكافرين.
٢٠- إنكار الجهاد وإنكار حد الردة ، وحد الرجم.

٢١- خلط الحق بالباطل وتأويل كتاب الله تعالى على غير وجهه ووضع الآيات في غير موضعها.

٢٢- ركز على المكي من القرآن الذي يدعو إلى الصبر والعفو قبل أن تنزل آيات الجهاد.

٢٣- اعتبر من يحكم بشرع الله قد وضع نفسه في موقع الألوهية.

٢٤- قصر معنى الجهاد على مجرد الدفاع ورد الاعتداء بمثله.

٢٥- حكم على أقباط مصر بأنهم أحق الناس بوصف الإسلام والإيمان.

٢٦- أنكر كلمة "أهل الذمة" وطالب بالمساواة بين المسلم والمسيحي وأنكر الجزية أيضاً.

٢٧- قصر الدعوة على من يطلب الهداية دون غيره ، فهي لمن يسعى إليها ، لا من أعرض عنها.

٢٨- قصر البراءة من الكافرين على المحاربين فقط دون غيرهم.

٢٩- قصر العلم في الإسلام على العلم التجريبي في الكون المادي ، واتفاقه مع الحضارة الغربية الحديثة.

٣٠- زعم أن حضارة الإسلام إنما هي حضارة يونانية ، وأنه قد تم تحريف الإسلام بأخذه من الثقافات الأخرى.

٣١- تفسير القرآن - كما زعم - تحريف للقرآن ، وهو ظلم لكتاب الله ، ونوع من التردي.

٣٢- الدفاع عن المنافقين وحرية الفكر أو الكفر ، وترك الجهاد والشرائع ، بل والتآمر على الدين أيضاً.

٣٣- تشويه تاريخ الصحابة وخاصة عثمان ، والدولة الأموية وخاصة معاوية ، والدولة العباسية قاطبة.

٣٤- نفي عصمة الأنبياء.

٣٥- إنكار النسخ في القرآن.

مدخل

باسم مشروع "التعليم والتسامح" - في كتاب وضع للتعليم في مصر - نشر الكفر والضلال باسم الإسلام.

صفحة

١٠ قال : ونؤمن بالتوراة والإنجيل .. هكذا بدون قيد !! وهو من غير تحريف ولا تبديل "نؤمن بما أنزل لا بما بدل".

١١ يقول : عن النبي محمد ﷺ في سياق الحديث عن الأنبياء .. وآخرهم ، وأولى أن يقول : خاتمهم.

١٢ يقول : ليس لنا أن نفرق بين رسول ورسول ، أو نفضل رسولاً على رسول ، نقول : كيف وقد قال الله تعالى : ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ (١)

١٣ يقول : من مظاهر السمع والطاعة لله تعالى أن أحب زميلي المصري المسيحي وأن أحب جاري المصري المسيحي فبهذا أمر الله تعالى ورسوله!! نقول : حسن المعاملة شيء ، والحب شيء آخر ، فأمرنا بحسن المعاملة ، ونُهينا عن حب الكفار ، قال تعالى : ﴿ **لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ (٢)

١٤ يقول : القيامة هي امتحان الله تعالى للبشر ، نقول بل هي الجزاء.

٢٠ يقول : إن الإحسان واجب لذوي القربى ، إذا كانوا مسلمين أو مسيحيين ، كيف ؟ !!

١- سورة البقرة آية ٢٥٣

٢- سورة المجادلة آية ٢٢

صفحة	
٢١	يقول : ابن السبيل هو كل غريب مسافر ليس من أهل البلد سواء كان مسلماً أو غير مسلم ، مصرياً أو عربياً أو أوربياً أو أمريكياً ، من أي بلد من داخل مصر أو خارج مصر ، وسواء كان غنياً أو فقيراً.
	– السائح يفيد بلدنا ، وبالأموال التي ينفقها السياح في مصر نستفيد جميعاً ، وهم ليسو في حاجة للصدقة ، إذن علينا أن نضاعف الاهتمام بهم ونعبر لهم عن حبنا وشكرنا.
٢٢	يقول : في معنى ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [1] معناها الآن الرفق بما ملكت أيماننا من الحيوان سواء كان حراً طليقاً مثل القطط والكلاب والطيور ، أو كان في خدمتنا مثل الخيول والبغال والحمير والمواشي. !!
٢٤	يقول : ما رأيكم في هذا الرجل الذي يصلي ويبكي من الخشوع وهو سارق نشال ، وكذا النشالين الذين يذهبون للحج ، إنهم يخدعون الناس بالتظاهر بالعبادة من صلاة وحج وصدقة.
٢٦	يقول : فماذا إذا عبدنا الله وصلينا وصمنا وتصدقنا ووقعنا في المعاصي ولم نتب ولم نتق الله ؟ هنا تكون عبادتنا وسائل للمعصية وتكون عبادتنا رياء ومتاجرة بالدين وخداعاً لله تعالى وللناس ، والله لا يقبل هذه العبادة.
٣١	يقول : في غزوة أحد اقترب المسلمون من النصر .. وما حدث للنبي وهو يحارب وحيداً ؟!
٣٢	يقول : فمن حق النبي أن يغضب لما فعله به المشركون المعتدون ، ولكن ليس من حقه أن يقول ﴿ لا يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا ﴾

١- سورة النساء آية ٣٦

صفحة

لأنه ليس من حق النبي ﷺ أن يحكم بتكفير أحد ، أو أن يقول إن فلاناً لن يفلح أو أن فلاناً سيدخل النار ، لأن ذلك من حق الله تعالى وحده ، فالله وحده هو مالك يوم الدين ، وهو الذي يملك الأمر وهو وحده الذي يعلم الغيب.

٣٣ يقول : إذن ليس من حق أي إنسان بعد النبي أن يملك الغفران أو التكفير لأحد ، طالما أن النبي ﷺ ليس من حقه ذلك ، ولذلك فليس من حق أي إنسان أن يحكم بكفر أي إنسان ، لأنه لا يعلم الغيب في المستقبل.

٣٤ يقول : إذن ننتظر حتى يحكم الله بيننا فيما نحن فيه مختلفون ، ننتظر حتى يوم الفصل ، وهذا ما يؤكده القرآن ﴿ **أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ (١) فالحكم بين اختلافات العباد في العقائد والمذاهب والأديان لا يكون إلا لله.

٣٦ يقول : إذن فالتمسك بالقرآن والسنة الحقيقية للنبي ﷺ يعني ألا نحكم بتكفير أحد ، ولكن ننتظر الحكم يوم القيامة ، بل إن الله أمرنا حين نرجئ الحكم في العقائد إليه يوم القيامة أن نتسامح مع المختلفين معنا في الدين والعقيدة فقال تعالى ﴿ **وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ، فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ (٢)

٣٧ يقول : ولأننا خصوم في الآراء والمعتقدات فلا يصح أن تكون خصماً وحكماً في نفس الوقت على خصمك ، بل نؤجل الحكم إلى الله تعالى لأنه هو الذي يقضي بالحق بيننا يوم المحكمة الكبرى يوم

١- سورة الزمر آية ٤٦

٢- سورة الزخرف أية ٨٨ ، ٨٩

٣- سورة المائدة آية ٨٢

القيامة.

يقول تعالى عن إخواننا النصارى ومودتهم لنا ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ (٣)

٤٠ يقول : فكيف بالشفاعة في الآخرة ، لن يتشفع النبي للمسلم العاصي فيخرجه من النار ويدخل الجنة؟ .. هذا لن يحدث ، لأن الله تعالى قال للنبي ﷺ ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ (١) .. فإذا كنا نكره الظلم ونريد للامتحان في المدرسة أن يكون عادلاً بلا تدخل ولا واسطة ولا شفاعة ، فكيف تكون الآخرة فيها تدخل وواسطة وشفاعة للعصاة. والآية تقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢)

٤١ يقول : أما الآية ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ (٣) معناها أن الملائكة التي تحمل عمل الإنسان هي التي تقدم العمل الطيب للإنسان الصالح ، بعد إذن الرحمن ، فيكون هذا العمل الصالح شفيعاً لصاحبه ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ (٤) ، إذن الشفاعة هي العمل الصالح للإنسان في الدنيا ، وتقدمه الملائكة ليكون شفيعاً أمام الله تعالى يوم الحساب !!

٤٢ قال : عندها لا تنفع شفاعة هذا العمل الشرير ، أما إذا كان عمله

١- سورة الزمر آية ١٩
٢- سورة البقرة آية ٢٥٤
٣- سورة البقرة آية ٢٥٥
٤- سورة النجم آية ٢٦

صفحة

صالحاً فإن عمله الصالح يكون شفيعاً له وهذا معنى قوله تعالى عن شفاعة أو شهادة الملائكة التي تشهد بالحق وتحفظ أعمال الإنسان ﴿ **وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ** ﴾ (١)

٤٣ يقول : وإذا عرفنا أننا في اليوم الآخر سيكون يوم الحساب عسيراً وبدون شفاعة لأي بشر وبدون واسطة فماذا نفعل في الدنيا ؟ سنجتهد في عمل الصالحات وسيمتلئ قلبنا إيماناً بالله تعالى واليوم الآخر ، وسنكون عظماء ، وإذا عرفنا أن يوم الحساب في الآخرة سيمتلئ بالشفاعة للعصاة حتى يتساووا بالصالحين فماذا سنفعل ؟ ستكون حياتنا الدنيا مليئة بالمعاصي والتخلف طالما سيتساوى كل شيء في النهاية ، ولهذا قال تعالى ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ (٢) ؟

٤٦ يقول : إن القرآن جعل كل من عاش على أرض مصر من أهل مصر ، سواء كان من بني إسرائيل الذين وفدوا إلى مصر من قرون أو كانوا من المصريين الذين عاشوا في مصر قبلهم بقرون ، يقول تعالى ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ** ﴾ (٣) وهم بنو إسرائيل أي قوم موسى إذن كان قوم موسى من أهل مصر !

٤٧ يقول : إذن أم موسى كانت مصرية ، وكذلك كان موسى وهارون عليهما السلام ، نعم كلهم مصريون ، وكذلك كان يوسف عليه

١- سورة الزخرف آية ٨٦

٢- سورة ص آية ٢٨

٣- سورة القصص آية ٤

صفحة

السلام مصرياً ، طالما قضى أغلب حياته في مصر ، وحين استقدم أباه يعقوب عليه السلام إلى مصر فعاش في مصر مع أبنائه ، أصبح نبي الله يعقوب وأولاده مصريين .. كان الفرعون الظالم يذبح أبناء المصريين من بني إسرائيل !!

٤٦ يقول تحت عنوان مصريون ومصريات في القرآن الكريم ، وقد بدت العنصرية والقومية واضحة وهو يتكلم عن السيدة المصرية الفاضلة زوجة فرعون ، ووصيفاتها المصريات ، والسيدة المصرية "هاجر" التي عدها ممن ذكروا في القرآن أيضاً !!

٥١ يقول : والسيدة مارية القبطية كذلك !! في نشأة موسى عليه السلام بالذات كانت البطولة فيها للنساء !!

٥٣ يقول : ثم بعد أن هاجر موسى إلى مدين وذهب إلى البئر رأى فتاتين تقومان بالرعي لأن أباهما شيخ كبير ، أي من حق المرأة أن تعمل عمل الرجال إذا أرادت واحتاج إليها المجتمع. وهذا يؤكد حق المرأة في العمل.

٥٩ يقول : الإسلام هو دين الله لكل البشر .. الجنة متاحة لكل مؤمن صالح من البشر. نقرأ آيتين تجعلان دخول الجنة متاحاً لكل إنسان إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً بغض النظر عن مذهبه ودينه الرسمي .. وجنسيته ، وهما قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [1] سورة البقرة ، ومثلها آية المائدة والمعنى يشمل كل من أصحاب الرسالات السماوية وغيرها ،

١- سورة البقرة آية ٦٢

صفحة

والذي يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر ويعمل صالحاً من جميع البشر فهو من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لأن الله تعالى ليس منحازاً إلى جنس من البشر ، ولا إلى مذهب أو جيل أو عصر أو طائفة ، ولكن الفكر الديني لدى البعض يجعلها تستأثر بالله تعالى ، وتستأثر بالجنة من دون العالمين ، ويظلمون الله تعالى وينسبون له التحيز ، وما الله تعالى بظلام للعبيد.

٦٠ يقول : كل الرسالات السماوية تقول شيئاً واحداً .. وتؤكد على مضمون واحد هو الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له والإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح.

٦١ ابتعاد البشر عن جوهر الرسالات السماوية : ولكن الذي يحدث أن الفكر البشري يطغى على الرسالة السماوية ، يقول أكاذيب منسوبة لله تعالى أو للأنبياء .. وتتأسس تجارة الدين .. وتضيع حقائق الدين الإلهي الكبرى وأخلاقياته العظيمة من الحب والسلام والتسامح والقسط والعدل والإحسان والصلاح والتقوى ، ويحل الكراهية والتعصب والتشدد وسفك الدماء والجمود والظلم ، وتكفير الآخرين سواء خارج الدين أو خارج المذهب أو داخله ويستتبع التكفير استباحة الأموال والأعراض والدماء .. وتلك هي جناية الفكر الديني البشري على الرسالات السماوية .. وعندها تتحول الحياة الدينية إلى عملة لها وجهان ، التقديس والتكفير ، تقديس الأئمة الأحياء منهم والأموات ، وتكفير الآخرين ، وينشغل الناس عن الحق بالخرافة ، وعن التقدم بالجدال في التوافه والشعوذات ويصبح الدين الحق هو المسئول عن ذلك التخلف ، ويكون

صفحة

اتهاماً ظالماً للدين الحق.

٦٢ معنى الإيمان والإسلام في مفاهيم القرآن (آمن بـــ) ، اعتقد (آمن لـــ) وثق واطمأن واصبح مأمون الجانب.

٦٣ وآمن بـــ / بمعنى اعتقد تعني الإيمان القلبي الباطني أو التعامل مع الله تعالى ، والبشر في ذلك يختلفون حتى في الدين الواحد والمذهب الواحد ، إذ أن كل طائفة أو مذهب أو ملة لها فكرتها عن الله تعالى ، والقرآن الكريم يؤكد على تأجيل الحكم على الناس في هذه الاختلافات العقيدية إلى الله تعالى يوم القيامة ، وليس لأحد الخصوم أن يكون قاضياً أو حكماً على خصمه في تلك الاختلافات العقيدية ، و (آمن لـــ) أي وثق واطمأن وأصبح مأمون الجانب يثق فيه الناس ويطمئنون إليه ، والإيمان بمعنى الأمن والأمان هو بالطبع حسب التعامل الظاهري ، فكل من تأمنه ويكون مأمون الجانب لا يعتدي على أحد هو إنسان مؤمن ، أما عقيدته الدينية أو المذهبية أو الطائفية فهذا شأن خاص به ، ومرجعه إلى الله تعالى ، والله تعالى يحكم عليّ وعليه يوم القيامة ، والذي يعطي نفسه تفويضاً بالحكم على الناس ومحاكمتهم في الدنيا إنما يضع نفسه في موقع الألوهية ، لأن الحكم بين الناس يوم القيامة وعلى أعمال الناس وعقائدهم في الدنيا لا يكون إلا لله تعالى وحده ﴿ **أفغير الله أبتغي حكماً** ﴾ [1] ؟!

٦٤ ونفس الحال مع كلمة الإسلام فالإسلام له معنى باطني اعتقادي ومعنى ظاهري ، معنى الإسلام الباطني الاعتقادي يختص

١- سورة الأنعام آية ١١٤

صفحة

بعلاقة الإنسان بربه وهو الانقياد لله تعالى وحده .. وأما الإسلام في التعامل الظاهري بين الناس فهو السلم والسلام يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [١] أي أمرهم بإيثار السلم ، ولهذا كانت تشريعات القتال في الإسلام هي لمجرد الدفاع ورد الاعتداء بمثله دون اعتداء على أحد أو عدوان على أحد ، لأن الله تعالى لا يحب المعتدين ، وتحية الإسلام هي السلام ، واسم الله تعالى هو السلام.

٦٥ وبذلك يتفق الإسلام والإيمان في المعنى الظاهري في التعامل السلمي ، الآمن مع الناس ، وفي التعامل العقيدي في الإيمان والاستسلام لله تعالى بلغة القلوب وهي لغة عالمية يتفق فيها البشر جميعاً مهما اختلف الزمان والمكان واللسان ، والجنة من نصيب المؤمن الذي يحقق الأمن في تعامله مع الناس .. والجنة من نصيب المسلم الذي يسلم الناس من لسانة ويده والذي يسلم لله تعالى قلبه وجوارحه سواء كان من المسلمين أو النصارى أو اليهود أو الصابئين ويقال لهم في الجنة "ادخلوها بسلام آمنين" أي فالجزاء من جنس العمل .. سلام وأمن في الدنيا ، وسلام وأمن في الآخرة ، أما المعتدون الظالمون فليس لهم عند الله تعالى إلا النار ، و الجزاء أيضاً من جنس العمل. وأقباط مصر يصل بهم إيثار السلام والمسالمة والأمن إلى درجة الصبر على الأذى والاضطهاد بحيث يكون الاستشهاد هو أسمى مطلب للمظلوم منهم ، أي أنهم أحق الناس بوصف الإسلام بمعنى السلم والمسالمة ، وأحق الناس بوصف الإيمان

١- سورة البقرة آية ٢٠٨

بمعنى إيثار الأمن والأمان ، وبالتالي فإن الإرهابيين المعتدين أبعد ما يكونون عن الإسلام والإيمان بالمعنى الظاهري والمعنى الباطني الاعتقادي.

٦٧ الإسلام دين العدل والقسط : وقد أوجب القرآن القسط والبر في التعامل ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) وبالتالي فإن الأقباط ، وهم أصلاً مسالمون امتلأ تاريخهم بالصبر على الاضطهاد وإيثار الاستشهاد على المقاومة للظلم ، هم أولى الناس ببر المسلمين وعدل المسلمين ، وإلا فمن يعتدي عليهم بالظلم والعدوان فقد استحق نقمة المولى عز وجل.

٧١ فإن الله تعالى يجعل الكتب السماوية كتاباً واحداً يقوم على أساسها العدل ، والله تعالى يأمر خاتم النبيين أن يقول ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (٢) [الكتاب : اسم جنس]

٧٢ وليس من القسط أن تنعدم المساواة بين المسلم والمسيحي ، أو أن يكون غير المسلم أهل ذمة ، فذلك من تشريعات الفكر الديني للمسلمين ، ولم يعرفه عصر النبي ﷺ !! وإنما هو مصطلح لم يعرفه القرآن ، ولكن أوجدته دولة المسلمين بعد أن فتحت ممالك وشعوباً وعاملت أبناء الأمم المفتوحة على أنهم أقل مكانة من المسلمين ، يدفعون الجزية وفق المفاهيم السائدة في

١- سورة الممتحنة آية ٨

٢- سورة الشورى آية ١٥

صفحة

العصور الوسطى وقتها ، وهذا ما ينافي تشريعات القرآن القائمة أساساً على القسط والعدل.

٧٥ الإسلام دين التسامح : التسامح مصطلح حديث ! ولم يرد في القرآن الكريم ،ولكن للقرآن الكريم مصطلحاته الخاصة ، وأقربها إلى معنى التسامح في مصطلحات القرآن : الإحسان والعمل الصالح والصبر والعفو والصفح والغفران.

٧٦ الإحسان على الجميع بغض النظر عن دينه وعقيدته ومذهبه ، فالإحسان للمسيحي إذا كان قريباً أو جاراً أو صاحباً أو مسكيناً أو زائراً أو سائحاً ، مع ملاحظة أن ابن السبيل هو الغريب المسافر القادم لبلادنا ، وهذا ينطبق على الأجانب ، والسياح بغض النظر عن اللون والجنس واللغة والدين والعقيدة ، هذا هو أدب الإسلام ، وتلك هي تشريعاته.

٧٧ وقد يكون الإحسان في رد التحية .. لأي إنسان بأي لغة ، وبأي كيفية ، فعلينا أن نرد عليه بالمثل أو بما هو أحسن من تحيته وليس شرطاً أن يكون مسلماً مثلنا أو أن ينطق بتحية الإسلام ، المهم أن تكون تحية !!

٧٩ كان الأمر للنبي بأن يقصر الدعوة بالهداية على من يسعى إليه طالباً الهداية ﴿ **طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى** ﴾ [1] ويؤكد رب العزة جل وعلا للنبي أنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى في السعي لهداية الناس الضالين ، ولكن يقصر الدعوة للهداية على تذكير أولئك الذين يخشون الله تعالى ﴿ **إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ**

١- سورة طه الآيات ١ : ٣

صفحة

﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [١] ، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [٢] ، يعني إذا أحسست أن التذكرة ستنفع فقم بها ، وإلا فلا تعرض نفسك للتعب والشقاء مع من يرفض الحق ، ولذا تكرر الأمر للنبي بالإعراض عن المعاندين سواء من كان منهم كافراً صريحاً أو منافقاً.

٨٠ الجدال بالتي هي أحسن مع أهل الكتاب نقول لهم ﴿ آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [٣] ومع المشركين نلتزم بما أمر الله به رسوله ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ، قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [٤] ، وكذلك ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [٥] أي يعمل كل فريق بما يعتقده صواباً وينتظر الجميع حكم الله تعالى يوم القيامة.

٨٤ إن التدين الباطل هو المتاجرة بالدين طلباً للعلو في الأرض وما ينشأ عن ذلك التدين من فساد.

٨٦ - **الإسلام والانتماء للوطن مصر : ما الذي تعنيه الموالاة في القرآن ؟ إن آيات الموالاة في القرآن الكريم** قد تم توظيفها ضد الأبرياء من المصريين **الأقباط** ، وصرح خطباء المساجد في التحريض

١- سورة يس آية رقم ١١

٢- سورة الأعلى آية رقم ٩

٣- سورة العنكبوت آية ٤٦

٤- سورة سبأ الآيات ٢٤ : ٢٦

٥- سورة هود آية ١٢١ ، ١٢٢

صفحة

ضد الأقباط مستشهدين بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ (1) وهم في ذلك الاستشهاد الخاطئ يتناسون سياق الآيات وهي تتحدث عن علاقة تآمريه بين اليهود والمنافقين ، ويتناسون تشريعات الموالاة وغيرها ، كما يتناسون تشريعات القتال وأنه للدفاع عن النفس أو ليس للاعتداء على الأبرياء.

٨٨ وحيث كان هناك صراع وحروب نزل المنع من موالاة أولئك اليهود والنصارى المحاربين للدولة ، وفي الوقت الذي نهى الله تعالى فيه عن موالاة المحاربين المعتدين من أهل الكتاب في سورة المائدة ، فإنه في نفس السورة أحل الطعام والتزاوج بين أهل الكتاب والمسلمين ، أي أن تشريع الموالاة أو الانتماء في التحريم والإباحة مرتبط أساساً بالحرب والسلام.

٨٩ خصوصاً وأن معنى الإسلام هو السلام في التعامل مع الناس ، وأن معنى الإيمان هو الأمن والأمان في التعامل مع الناس وأن معنى المسلم هو الذي يسلم الناس جميعاً من لسانه ويده ، وأن معنى المؤمن هو الذي يطمئن إليه الناس أو هو المأمون الجانب ، وعليه فإنه في إطار الوطن الواحد والدولة الواحدة حيث يسود السلام بين الطوائف والجماعات فإن الانتماء الذي يجمع أولئك الناس هو العيش في سلام ، خصوصاً في إطار حرية العقيدة ومسئولية كل إنسان على ما يختاره من مذهب أو دين ، وإرجاع الحكم إلى الله تعالى يوم القيامة أو يوم الدين ، والموالاة هي بين أولئك المسالمين جميعاً ضد المعتدين

١- سورة المائدة آية ٥١

الظالمين أو الإرهابيين بتعبير عصرنا.

وهنا يرتبط تشريع الموالاة بالإسلام الظاهري أو السلام في التعامل بين الناس على اختلاف عقائدهم فكل إنسان مسالم هو مسلمَ مهما كانت عقيدته بوذياً كان أو قبطياً أو سنياً أو شيعياً أو ملحداً ، المهم أنه مسالم لا يعتدي على أحد ولا يجبر أحداً على اعتناق عقيدته ، ومرجعنا جميعاً إلى الله تعالى يوم القيامة.

٩٠ ومن السهل الحكم على أي مجتمع يعيش أهله في سلام بأنه مجتمع مسلم ، وهنا يمكن تطبيق كل قواعد الإسلام وشرائعه على أساس القسط والعدل بين الجميع والإحسان والشورى مهما اختلفت العقائد والمذاهب ، القران سوى بيننا وبين أهل الكتاب حيث التقسيم إلى سابقين ومتوسطين وظالمين. ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ... ﴾ (٣)

٩٢ ولهذا فإن المجتمع المسلم هو الذي يعيش أفراده في سلام ووئام ، وعليهم جميعاً أن ينافسوا في الخير ليصلوا إلى أعلى الدرجات مهما اختلفت مذاهبهم وشرائعهم السماوية.

٩٣ وأن التسابق لخير المجتمع ورفاهيته ورعاية المحتاجين من أبنائه ، ويعني أن يتسابق المسلمون في إقامة كنائس للمسيحيين ، ويتسابق المسيحيون في بناء مساجد للمسلمين !! وما قلناه من آيات قرآنية ينطبق على كل وطن وكل مجتمع ، ومصر

١- سورة المائدة آية ٦٦

٢- سورة آل عمران آية ١١٤

٣- سورة فاطر آية ٣٢

صفحة

خصيصاً.

فرضية الانتماء لمصر : في قصص القرآن يتضح أن الانتماء يكون للقوم الذين يعيشون معاً على أرض واحدة ووطن واحد.

٩٤ والقومية في مفهوم القرآن لا تعني الانتساب إلى أصل عرقي واحد أو قبيلة واحدة ، وإنما تعني العيش في وطن واحد مهما اختلفت الأنساب والأعراق والمذاهب الدينية والفكرية .. وفي قصة موسى حيث طغى فرعون واستبد واضطهد بني إسرائيل وهم من سلالة يعقوب عليه السلام وعاشوا بمعزل عن المصريين ، إلا أن القرآن الكريم اعتبرهم من أهل مصر ، فقال عن فرعون ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ [1] إذن بنو إسرائيل هم مصريون في ذلك الوقت بحكم عيشهم المشترك مع المصريين في نفس الوطن مصر ، ولأن فرعون لم يفهم هذا واضطهد هذه الأقلية فإن الله تعالى اعتبره من المفسدين ، وأرسل نبياً من نفس هذه الأقلية لينقذها من عسف فرعون ، فلما ازداد بغي فرعون أهلكه الله تعالى مع المستكبرين من جنده وقومه. ونخلص من هذا إلى أن الانتماء هو للوطن الواحد الذي يعيش فيه شعب تتعدد أنسابه وأعراقه وأديانه ومذاهبه ، ولكن يعيشون في أمن وسلام ووئام ، فإذا تبدل السلم اضطهاداً حل غضب الله تعالى بالظالمين.

١٠١ من هم أهل مصر في القرآن ؟ يحددهم بأنهم الذين يعيشون على أرض مصر حتى لو اختلفوا في الثقافة والعقيدة عن الأكثرية ، والدليل أن الله تعالى اعتبر بني إسرائيل ضمن أهل مصر ،

١- سورة القصص آية ٤

صفحة

فقال تعالى عن فرعون واضطهاده لبني إسرائيل ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ (١)

١٠٩ فسر كلمة القرآن "حمال أوجه" أي ترى فيه الرأي ونقيضه ، ثم أنكر هذه العبارة.

١١٣ يقول : ولكن مصطلحات التراث جعلت التفقه قصراً على العلم بالشرع مع أن مفهوم التفقه في القرآن يعني العلم والبحث العقلي والمادي في كل شيء. والسنة في اللغة العربية تعني الشرع ، تقول "سن قانوناً" أي شرع قانوناً ، وفي القرآن تأتي في التشريع بمعنى الشرع حتى فيما يخص النبي والصحابة -- في مفهوم القرآن - هو الذي يصحب في الزمان والمكان ، لذلك تكرر في القرآن وصف النبي ﷺ بأنه صاحب المشركين والنسخ في القرآن يعني الإثبات والكتابة والتدوين ، ويعني في التراث العكس تماماً ، أي الإلغاء. ومفهوم الحكم في القرآن بمعنى التحاكم القضائي ،وليس مقصوداً به على الإطلاق ما يتردد في التراث من أنه الحكم السياسي أو الحاكمية.

١١٤ يقول : وكذلك الحال مع "أولي الأمر" فالمقصود بهم في القرآن هم أصحاب الشأن وأصحاب الخبرة والاختصاص في الموضوع المطروح. والحدود في القرآن تعني الشرع والحق ، ولا تعني العقوبات. والمكروه في مفهوم القرآن هو أفظع المحرمات وأكبر الكبائر كالقتل والزنا والكفر والفسوق ، ولكن المكروه في الفقه الذاتي هو الحلال الذي يفضل الابتعاد عنه. وكذلك المستحب أو المندوب في التراث يعني الحلال المباح ولكن

١- سورة القصص آية ٤

صفحة

المستحب في مفهوم القرآن هو الفرض الواجب. والتعزير عند الفقهاء هو الإهانة والعقوبة ، ولكن التعزير في القرآن يعني التكريم والتمجيد والتقديس والإعزاز والنصرة لله تعالى ورسوله.

١١٧ فالأمر بالقتال يأتي مقيداً بأن يكون القتال في سبيل الله بمعنى أن يكون لمجرد الدفاع عن النفس ورد الاعتداء بمثله ، وأن يكون القتال بهدف وضع الفتنة أو الإكراه في الدين ، وحتى يكون الدين لله تعالى خالصاً يحاسب البشر على أساس حريتهم في العقيدة وحتى لا تكون لهم حجة بأن هناك في الدنيا من أكرههم أو منع حريتهم في الاختيار.

١١٨ والفتنة في مصطلح القرآن تعني الاضطهاد الديني أو الإكراه في الدين فيما يخص التعامل بين الناس ، أما معناها فيما يخص علاقة الله تعالى بالبشر فتعني الاختبار والامتحان والابتلاء.

١٢٠ ومن هنا تصبح الصلاة مجرد وسيلة لخداع الناس ، وتصبح مظاهر التدين السطحية من اللحية والجلباب والنقاب وسائل للفساد والانحلال الخلقي طالما تناسى الناس المقصد التشريعي من العبادات وهو تقوى الله تعالى.

لقد تحول الجهاد الإسلامي إلى إرهاب وقتل للأبرياء من الأقباط المسالمين والسياح الضيوف الزائرين.

١٢٢ ولي الله في القرآن : من اتصف بصفتين أساسيتين هما الإيمان والتقوى. وهما صفتان عامتان لا يختص بهما شخص بعينه أو جنس محدد أو طائفة خاصة ، بل هي صفات مطروحة أمام البشر جميعاً في دنيا التعامل ومطلوب من الجميع أن يتحلوا بها عرباً كانوا أم عجماً ، أغنياء أم فقراء ، رجالاً أو نساءً ،

صفحة

	صغاراً أو كباراً ، من أتباع محمد أو عيسى أو موسى عليه السلام أو غيرهم. فكل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فجزاؤه جزاء أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
١٢٥	يتحدث عن المعاصي وكيف أنها تذهب بالإيمان ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [١]
١٢٦	فالإيمان هو تعامل خاص بين العبد وربه المطلع وحده على السرائر ، والتقوى أكثر من الإيمان خفاء وسرية لأنها تشمل حديث النفس
١٢٧	والرسول لا يعلم الغيب ، فنحن أولى بالجهل بحقيقة اتصاف إنسان منا بالإيمان والتقوى ، ولذلك لا نستطيع أن نحكم على إيمان شخص ولا نستطيع تبين درجة تقواه ، فمن زكى نفسه ووصفها بالإيمان الكامل والتقوى الخاشعة فقد تشبه بعصاة اليهود وصار أبعد عما يدعيه ، ناهيك بمن يدعي الولاية ليضل الناس في دينهم ويجعل من نفسه واسطة بين الله وخلقه.
١٢٨	وعلى ذلك فلن يوجد – بعد الأنبياء – شخص بعينه على أنه ولي لله ، لأن هذا الشخص لا بد أن يقع في معصية ، وحين يعصى تنتفي عنه صفة التقوى فتنتفي عنه صفة الولاية.!!
١٣٢	قضية الشفاعة : نفاها ، وعصمة الأنبياء نفاها ، والشفاعة عمل صالح ، لا يجوز للرسول أن يتكلم في الغيبيات.
١٥٤	كرر قضية أن الإسلام دين السلام.
١٧٣	راح يؤكد من مفهومه الخاص أن الإسلام دين الحرية في الفكر والعقيدة ويزعم أن حرية الرأي والفكر هي حرية الإلحاد والكفر. !!

١- سورة المطففين آية ١٤

صفحة

وأن من يحكم على إنسان أو يحاسبه في الدنيا فهو يتقمص دور الإله. !!

١٨٧ مصادرة الكتب التي تعبر عن آراء أصحابها ، هواية جديدة ومفضلة للكهنوت الديني والسياسي.

١٩١ القرآن يقرر الحرية الدينية للخصوم ، مع الإعراض عنهم.

١٩٣ تشريع الجهاد لتقرير حرية الرأي ، ومنع المشركين من استمرار اضطهادهم للمسلمين أو – بتعبير القرآن – كف المشركين عن فتنة الناس في دينهم.

١٩٧ حرية الرأي في سنة رسول الرسول ﷺ – من منظروه – وذكر أمثلة على غير وجهها ، وتمتع المنافقين في حكومة النبي ﷺ بحرية الرأي التي عبروا من خلالها عن رأيهم في الإسلام والقرآن والرسول ﷺ.

وإلى مدى كانت حرية المعارضة في حكومة النبي ﷺ ، ورفضهم الاحتكام إليه ، بل والعمل ضد الدولة حتى في أوقات الحرب والطوارئ ، وتقاعسهم عن الجهاد.

ووصل تآمرهم إلى حد الاتصال بأعداء المسلمين من المشركين واليهود. !!! وعقد محالفات سرية معهم ضد كحومة النبي ﷺ.

ثم تمكنوا بالحرية التي يتمتعون بها من إقامة مسجد جعلوه وكراً للتآمر والإضرار بالمسلمين والتفريق بينهم ، وجعلوه ملجأ لكل متآمر على حكومة النبي والإسلام.

٢١٤ ذكر حرية الرأي في عصور الخلفاء ، وفيه اتهم الصحابة باتهامات شنيعة.

٢٢٣ تحت عنوان والإسلام دين العلم ، دعا إلى الأخذ بفنون الحضارة الغربية ، وشكك في الغيب.

صفحة

٢٣٦ التناقض بين الدولة الإسلامية والدولة الدينية.

٢٥٥ بين الشورى والاستبداد ، وقراءة سريعة في تاريخ المسلمين.

٢٧٠ تحدث عن الإسناد في الحديث ، وأنه يناقض المنهج العلمي ، والمنهج القرآني ، ويخالف مفهوم الشهادة. !!!!

انتهى باختصار شديد

●●●●●

أولاً : الرد على الفهم الخاطئ للاستشهاد بالآيات القرآنية

سورة البقرة

١- قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)

فزعم الكاتب أن الجنة من نصيب المؤمن الذي يحقق الأمن في تعامله مع الناس ، ويحقق الاعتقاد في ألوهية الله تعالى وحده ، والجنة من نصيب المسلم الذي يسلم الناس من لسانه ويده والذي يسلم لله تعالى قلبه وجوانحه سواء كان من المسلمين أو النصارى أو اليهود أو الصابئين ، ويقال لهم في الجنة "ادخلوها بسلام آمنين" أي فالجزاء من جنس العمل ، فكل من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بغض النظر عن دينه وجنسه وقوميته أو مذهبه أو طائفته . فالمعنى يشمل كل من أصحاب الرسالات السماوية وغيرها ، والذي يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر ويعمل صالحاً من جميع البشر فهو من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لأن الله تعالى ليس منحازاً إلى جنس من البشر ولا إلى مذهب أو جيل أو عصر أو طائفة ، ولكن الفكر الديني لدى البعض يجعلها تستأثر بالله تعالى ،وتستأثر بالجنة من دون العالمين ، ويظلمون الله تعالى وينسبون له التحيز وما ربك بظلام للعبيد. !!!

نقول : والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً فإن لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

١- سورة البقرة آية ٦٢

فالعبرة بحقيقة العقيدة ، لا بعصبية جنس أو قوم .. وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير.[١]

وأما زعمه بأن الجميع سيخلون الجنة ، على الرغم من كفرهم وشركهم وإبائهم الإسلام ديناً فهو مردود بقوله تعالى

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٢]

وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد ، إنما هو الإسلام والإحسان ، لا الاسم والعنوان **﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾** فأخلص ذاته كلها لله ، ووجه مشاعره كلها إليه ، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة **﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾** هنا تبرز سمة الإسلام الأولى ، إسلام الوجه – والوجه رمز على الكل – ولفظ أسلم يعني الاستسلام والتسليم ، الاستسلام المعنوي ، والتسليم العملي ، ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام **﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾** فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك ، بين العقيدة والعمل ، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي ، بذلك تستحيل العقيدة منهجاً للحياة كلها ، وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها ، وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله **﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** الأجر المضمون لا يضيع عند ربهم ، والأمن الموفور لا يساوره خوف ، والسرور الفائض لا يمسه حزن ، وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعاً ، فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة.[٣]

١- في ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب ٧٦/١ دار الشروق ٢٧

٢- سورة البقرة آية ١٢١ ، ١١٢

٣- في ظلال القرآن ١٠٣/١ ، ١٠٤ بتصرف.

قال الطبري : إيمان المؤمن في هذا الموضع ثباته على إيمانه ، وإيمان اليهود والنصارى والصابئين بالتصديق بمحمد ﷺ وبما جاء به ، فمن يؤمن منهم بمحمد وبما جاء به واليوم الآخر ويعمل صالحاً فلم يبدل ولم يغير حتى توفي على ذلك ، فله ثواب عمله وأجره عند ربه ، كما وصف جل ثناؤه.

فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وبسنة موسى حتى جاء عيسى ، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة ،اخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكاً.

وإيمان النصارى أنه من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه ، حتى جاء محمد ﷺ فمن لم يتبع محمد ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكاً.

وقال النبي ﷺ **﴿ من مات على دين عيسى ومات على الإسلام قبل أن يسمع بي فهو على خير ، ومن سمع بي اليوم ولم يؤمن بي فقد هلك ﴾** [١]

كما قال ﷺ **﴿ والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي وبما جئت به إلا كان من أهل النار ﴾** [٢]

وعن ابن عباس : قوله تعالى **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ... ﴾** أنزل الله تعالى بعد هذا **﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾** [٣] وهذا الخبر يدل على أن ابن عباس كان يرى أن الله جل ثناؤه كان قد وعد من عمل صالحاً من اليهود والنصارى والصابئين على عمله في الآخرة الجنة ، ثم نسخ ذلك بقوله **﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾**.أ.هـ[٤]

١- لم أقف عليه.

٢- رواه مسلم ، كتاب الإيمان برقم (٢١٨) ، وأحمد برقم ٧٨٥٦

٣- سورة آل عمران آية ٨٥

٤- تفسير الطبري ١/ص٣٢٠ -بتصرف- مطبعة البابي الحلبي

٢- **قال تعالى :**

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1]

لقد زعم الكاتب بأن النسخ في الآية يعني الإثبات والكتابة والتدوين ، بعكس ما هو معروف في التراث وكتب التفسير بأنه الإلغاء.

وأقول : إنها حملة قديمة تزعمها اليهود ضد النسخ في القرآن وهي تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف ، وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة ، الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين.

وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة – كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها – أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف ، التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة وأحوالها المتطورة ، أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة .. سواء كانت هذه أم هذه أم هذه ، أم هي جميعاً المناسبة التي اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة ، فإن القرآن يبين هنا بياناً حاسماً في شأن النسخ والتعديل ، وفي القضاء على تلك الشبهات التي أثارتها يهود ، على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب ، فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال – في فترة الرسالة – هو لصالح البشرية ، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها ، والله خالق الناس ، ومرسل الرسل ، ومنزل الآيات هو الذي يقدر هذا ، فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان ، سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكماً من الأحكام ، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوي كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل ، فإنه يأتي بخير منها أو مثلها ، ولا يعجزه شيء وهو مالك كل شيء ، وصاحب الأمر كله في السموات والأرض ، ومن ثم تجيء هذه التعقيبات ﴿ أَلَمْ

١- سورة البقرة آية ١٠٦

تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ (١) أ.هـ (٢)

وفي لغة العرب : ننسخ : نزيل ، وننسها : نمحوها

قال ابن عباس رضي الله عنهما : النسخ في كلام العرب على وجهين : أحدهما : النقل كنقل كتاب من آخر ، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً ، أعني من اللوح المحفوظ ، وإنزاله إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، وهذا لا مدخل له في هذه الآية ، ومنه قوله تعالى ﴿ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (٣) أي نأمر بنسخه وإثباته .

والثاني : الإبطال والإزالة ، وهو المقصود هنا ، وهو منقسم في اللغة على ضربين : أحدهما : إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه ، ومنه : نسخت الشمس الظل ، إذا أذهبته وحلت محله ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ وفي صحيح مسلم ﴿ **لم تكن نبوة قط إلا تناسخت** ﴾ (٤) أي تحولت من حال إلى حال ، يعني أمر الأمة ، قال ابن فارس : النسخ نسخ الكتاب ، والنسخ أن تزيل أمراً كان من قبل يعمل به ثم تنسخه بحادث غيره ، كالآية تنزل بأمر ثم ينسخ بأخرى ، وكل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه ، يقال : انتسخت الشمس الظل ، والشيب الشباب ، وتناسخ الورثة : أن تموت ورثة بعد ورثة ، وأصل الميراث قائم ، وكذلك تناسخ الأزمنة والقرون.

١- سورة البقرة آية ١٠٧

٢- في ظلال القرآن ١/١٠١ ، ١٠٢ بتصرف.

٣- سورة الجاثية آية ٢٩

٤- رواه مسلم.

إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه كقولهم : نسخت الريح الأثر ، ومن هذا المعنى قوله تعالى ﴿ **فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ** ﴾ [1] أي يزيله فلا يتلى ولا يثبت في المصحف بدله.[2]

قال القرطبي : أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه ، وهم محجوجون بإجماع السلف السابق على وقوعه في الشريعة ، وأنكرته طوائف من اليهود ، وهم محجوجون بما في التوراة ، وهو في كل الرسالات والنسخ ليس من باب البداء ، بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة ، وحكم إلى حكم ، لضرب من المصلحة إظهاراً لحكمته وكمال مملكته. ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية ، وإنما كان يلزم البراء لو لم يكن عالماً بمآل الأمور ، وأما العالم بذلك فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح ، كالطبيب المراعي أحوال العليل ، فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته ، لا إله إلا هو ، فخطابه يتبدل ، وعلمه وإرادته لا تتغير ، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى.[3]

١- سورة الحج آية ٥٢

٢- تفسير القرطبي ١/ص٦٢ بتصرف ، وتفسير ابن كثير ٤٩/١ ، ١٥٠ بتصرف.

٣- تفسير القرطبي ٦٣/١ بتصرف.

٣- قال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [١]

يقول الكاتب : والفتنة في مصطلح القرآن تعني الاضطهاد الديني أو الإكراه في الدين فيما يخص التعامل بين الناس ، أما معناها فيما يخص علاقة الله تعالى بالبشر فتعني الاختبار والامتحان والابتلاء وتقرير الحرية الدينية ومنع الفتنة أو الاضطهاد الديني بأن يكون الدين كله لله تعالى ، يحكم فيه وحده يوم القيامة دون أن يغتصب أحدهم سلطة الله في محاكم التفتيش واضطهاد المخالفين في الرأي.

ونقول : لقد جاء الإسلام في صورته الأخيرة ، التامة الكاملة ، وهو يمثل نعمة لا تعادلها نعمة. ومن ثم كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل ، وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال ، ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحراراً في اعتناق هذا الدين ، لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة ، فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان ، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها ، وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان ، وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان.

فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم ألا يفتنوا بأي وسيلة من وسائل الفتنة ، لا بالأذى ولا بالإغراء ، ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة ، وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض له بالأذى والفتنة ، ضماناً لحرية العقيدة وكفالة لأمن الذين هداهم الله ، وإقراراً لمنهج الله في الحياة ، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام. وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجب آخر على الجماعة

١- سورة البقرة آية ١٩٣

المسلمة ، وهو أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية ، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها ، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة في الأرض ، ويكون الدين لله ، لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ، ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقي عليه ، وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله عن أهله ويضلهم عن سبيل الله ، بأية وسيلة وبأية أداه ، وفي ضوء هذه المبادئ العامة كان الجهاد في الإسلام.[١]

قال القرطبي : في الآية أمر بالقتال لكل مشرك في كل موضع ، وسبب القتال هو الكفر ، وقوله ﴿ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي كفر أو شرك وما تابعه من أذى المؤمنين ، وأصل الفتنة : الاختبار والامتحان ، مأخوذ من فتنت الفضة ، إذا أدخلتها في النار لتميز رديئها من جيدها.[٢]

وقال ابن كثير : عن ابن عمر ﷺ قال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله. وقال عن الآية : فعلنا على عهد رسول الله ﷺ ، وكان الإسلام قليلاً ، فكان الرجل يفتن في دينه ، إما قتلوه أو عذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.[٣]

وقال الطبري في الآية : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم ﴿ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يعني : حتى لا يكون شرك بالله وحده وحتى لا يعبد دونه أحد ، وحتى تضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان. كما

١- في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب ١٨٦/١ ، ١٨٧ بتصرف.
٢- تفسير القرطبي ٣٥٣/١ بتصرف.
٣- تفسير ابن كثير ٢٢٧/١ بتصرف.

قال قتادة : حتى لا يكون شرك. وقاله مجاهد والسدي وابن عباس وغيرهم.[١] ويكون الدين لله : أن يقال : لا إله إلا الله ، كما قال رسول الله ﷺ : ﴿ **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله** ﴾ إنه الجهاد للعقيدة ، لحمايتها من الحصار ، وحمايتها من الفتنة ، وحماية منهجها وشريعتها في الحياة ، وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء ، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام ، ويقره ويثيب عليه ، ويعتبر الذين يقتلون فيه شهداء والذين يتحملون أعباءه أولياء. فالقتال في سبيل الله ، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة ، ومع تحديد الهدف تحديد المدى ﴿ **وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [٢]

ثم يمعن السياق في توكيد القتال لهؤلاء الذين قاتلوا المسلمين وفتنوهم في دينهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، والمضي في القتال حتى يقتلوهم على أية حالة ، وفي أي مكان وجدوهم ، باستثناء المسجد الحرام ، إلا أن يبدأ الكفار فيه القتال ، وإلا أن يدخلوا في دين الله فتكف أيدي المسلمين عنهم ، مهما كانوا قد آذوهم من قبل ، وقاتلوهم وفتنوهم ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [٣] إن الفتنة عند الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية ، ومن ثم فهي أشد من القتل ، أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة ، ويستوي أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلي ، أو بإقامة أوضاع فاسدة

١- تفسير الطبري ١٩٤/٢ بتصرف.

٢- سورة البقرة آية ١٠٩

٣- سورة البقرة آية ١٩١ ، ١٩٢

من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله ، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه.

وغاية القتال هي ضمانة ألاّ يفتن الناس عن دين الله ، وألاّ يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشابهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام ، وتسلط عليهم فيه المغريات والمضللات والمفسدات ، وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه ، ويهابه أعداؤه ، فلا يجرؤوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة ، ولا يخشى أحد يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تلحق به الأذى والفتنة ، والجماعة المسلمة مكلفة إذن أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوة المعتدية الظالمة ، وحتى تصبح الغلبة لدين الله والمنعة ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ [1] وإذا كان النص عند نزوله يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة ، وهي التي كانت تفتن الناس ، وتمنع أن يكون الدين لله ، فإن النص عام الدلالة ، مستمر التوجيه ، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ، ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين ، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الاقتناع ، والاحتفاظ بها في أمان ، والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة ، وتطلق الناس أحراراً من قهرها يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله.[2]

١- سورة البقرة آية ١٩٣

٢- في ظلال القرآن ١٨٧/١ – ١٩٠ بتصرف.

٤ – قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١)

زعم صاحب مشروع التعليم والتسامح : أنها تعني السلم والسلام ، وإيثاره على غيره بمنع القتال أو جعله لمجرد الدفاع ورد الاعتداء. !!

مع أن الآية دعوة للمؤمنين أن يستسلموا بكلياتهم لله ، في ذوات أنفسهم ، وفي الصغير والكبير من أمرهم ، أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشذة من تصور أو شعور ، ومن نية أو عمل ، ومن رغبة أو رهبة ، لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه وقضاه.

استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية ، الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد لهم الخير والنصح والرشاد ، وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير في الدنيا والآخرة سواء أنها تأمرهم بالدخول في السلم كافة ، ليسلموا أنفسهم كلها لله ، فلا يعود لهم منها شيء ، ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ ، إنما تعود كلها لله في طواعية وفي انقياد وفي تسليم.

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعربد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان ، وفي المجتمعات التي لا تعرف الإسلام ، أو التي عرفته ثم تنكرت له وارتدت إلى الجاهلية ، ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ، حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان ، فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان ، إما الدخول في السلم كافة ، وإما اتباع خطوات الشيطان ، إما هدى وإما ضلال ، إما إسلام وإما جاهلية ، إما طريق الله وإما طريق الشيطان ، إما هدى الله وإما غواية الشيطان ، وبمثل هذا الحسم

١– سورة البقرة آية ٢٠٨

ينبغي أن يدرك المسلم موقفه فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.[١]

قال القرطبي : لما قسم الله سبحانه الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق فقال : كونوا على ملة واحدة ، واجتمعوا على الإسلام ، واثبتوا عليه ، فالسلم هنا بمعنى الإسلام ، قاله مجاهد ، ورواه أبو مالك عن ابن عباس.

ومنه قول الشاعر الكندي :

دعوت عشيرتي للسلم لما رأيتهم تولوا مدبرينا

أي إلى الإسلام لما ارتدت كندة بعد وفاة النبي ﷺ مع الأشعث بن قيس الكندي ، ولأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالدخول في المسالمة التي هي الصلح ، وإنما قيل للنبي ﷺ أن يجنح للسلم إذا جنحوا إليه ، وأما أن يبتدئ بها فلا ، قاله الطبري.[٢]

وقيل : أمر من آمن بأفواهم أن يدخلوا فيه بقلوبهم ، وقال طاوس ومجاهد : ادخلوا في أمر الدين.

وقال سفيان الثوري : في أنواع البر كلها.

وقال ابن عباس : نزلت الآية في أهل الكتاب ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى ادخلوا في الإسلام باتباعكم محمد ﷺ كافة ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : ﴿ **والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار** ﴾ وقوله ﴿ كَافَّةً ﴾ معناه جميعاً ، والجماعة تسمى كافة لامتناعهم عن التفرق.[٣]

١- في ظلال القرآن ٢٠٦/١ - ٢١١ بتصرف.

٢- تفسير الطبري ٣٢٥/٢ بتصرف.

٣- تفسير القرطبي ٢٢/٣ بتصرف.

٥- قال الله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

فسرها الكاتب فقال : لقد كرهوا القتال دفاعاً عن النفس وهو خير لهم وأحبوا الاستكانة والخضوع لمن يحاربهم وهو شر لهم ، والسبب أنهم تعودوا السلام والصبر. حتى إن فريقاً منهم احتج على تشريع القتال ورفع صوته لله بالدعاء طالباً تأجيل هذا التشريع ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ (٢)

والصواب : أن هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام ، وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد ، غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين ، وإذا استغيث أن يغيث ، وإذا استنفر أن ينفر وإن لم يحتج إليه قعد ، قلت : ولهذا ثبت في الصحيح ﴿ **من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية** ﴾ (٣) وقال ﷺ يوم الفتح ﴿ **لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا** ﴾ (٤)

وقوله : ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ أي شديد عليكم ومشقة وهو كذلك ، فإنه إما أن يقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء ، ثم قال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا

١- سورة البقرة آية ٢١٦

٢- سورة النساء آية ٧٧

٣- رواه البخاري.

٤- رواه البخاري كتاب الجهاد ، باب **لا هجرة بعد الفتح** ، ومسلم كتاب الإمارة ، باب المبايعة بعد فتح مكة.

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس فيه خيره ولا مصلحته ، ومن ذلك القعود عن القتال ، قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم ، ثم قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون.(١)

نعم ، إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة ، ولكنها فريضة واجبة الأداء ، واجبة الأداء لأن فيها خيراً كثيراً للفرد المسلم وللجماعة المسلمة وللبشرية كلها ، وللحق والخير والصلاح.

والإسلام يحسب حساب الفطرة ، فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ، ولا يهون من أمرها ، ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها ، فالإسلام لا يماريُ في الفطرة ولا يصادمها ، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل ، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ، ويسلط عليه نوراً جديداً.

إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق ، ولكن وراءه حكمة تهون مشقته ، وتسيغ مرارته ، وتحقق به خيراً مخبوءاً قد لا يراه النظر الإنساني القصير .. عندئذٍ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر ، ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها ، نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور .. إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيراً ، ووراء المحبوب شراً.

إن العليم بالغايات البعيدة ، المطلع على العواقب المستورة ، هو الذي يعلم وحده ، حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة ، وعندما تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة ، وتتفتح منافذ الرجاء ، ويستروح القلب في الهاجرة ، ويجنح إلى الطاعة والأداء في يقين وفي رضاء.(٢)

١- تفسير ابن كثير ٢٥٢/١

٢- في ظلال القرآن ٢٢٣/١

قال القرطبي : فالكره في الطباع ، وإنما كان الجهاد كرهاً لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل ، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس ، فكانت كراهيتهم لذلك ، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى.

وقال عكرمة في هذه الآية : إنهم كرهوه ثم أحبوه وقالوا : سمعنا وأطعنا ، وهذا لأن امتثال الأمر يتضمن مشقة ، لكن إذا عرف الثواب هان في جنبه مقاساة المشقات.

قلت : ومثاله في الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه كقطع عضو وخلع ضرس وعضد وجحامة ابتغاء العافية ودوام الصحة . ولا تجد أفضل من الحياة الدائمة في دار الخلد والكرامة في مقعد صدق.[1]

---

١ – تفسير القرطبي ٣٩/٣ بتصرف.

٦- قال تعالى :

﴿ ... ... وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [١]

زعم أن الحدود في القرآن تعني الشرع والحق ولا تعني العقوبات.

ونرد عليه بأن الحدود أنواع ، منها حدود الأمر بالامتثال ، وحدود النهي بالاجتناب. وحدود الله فرائضه ، وحدود الله : ما منع منه ، والحد مانع من الاجتراء على الفواحش ، وأحدت المرأة : امتنعت من الزينة ، ورجل محدود : ممنوع من الخير ، والبواب : حداد أي مانع ، والحدود : الحواجز ، والحد : المنع ، ومنه سمي الحديد حديداً ، لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البدن.

وسميت حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها ، وأن يخرج منها ما هو منها ، ومنها سميت الحدود في المعاصي ، لأنها تمنع أصحابها من العود إلى أمثالها.

ومعنى إقامة حدود الله : العمل بها ، والمحافظة عليها ، وترك تضييعها.

وتفسر كلمة الحد بمعناها حسب السياق ، ولا تكون بمعنى واحد.

وكيف يقال الحد بمعنى الشرع ، وليس بمعنى العقوبة ، وقد ذكر الله تعالى الحدود في كتابه ، فالحدود أحكام بينها الله للعباد ، وقد منع التجاوز عنها ، فمن تجاوز فقد ظلم نفسه وأوردها مورد الهلاك.[٢]

١- سورة البقرة آية ٢٣٠

٢- تفسير القرطبي ٣/١٥٤ بتصرف.

٧- قال تعالى :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [١]

قال ابن منصور : معناها أن الملائكة التي تحمل عمل الإنسان هي التي تقدم العمل الطيب للإنسان الصالح بعد إذن الرحمن ، فيكون هذا العمل الصالح شفيعاً لصاحبه.

ونحن نقول : إن هذه الآية الكريمة ، تفيد إثبات الشفاعة ، وأنها حق ، وأنها بإذن الله سبحانه وتعالى ، وفي الحديث المتفق عليه **﴿ أن النبي محمداً ﷺ يسجد لله ويسبحه سبحانه ويحمده بمحامد لم يفتح عليه قبل بمثلها ، فيقول الله له : يا محمد ارفع رأسك ، سل تعط واشفع تشفع .. ﴾** فالحديث مفسر للآية ومبين معناها ، ومتفق معها تمام الاتفاق ، فالآية تفيد أن الشفاعة بإذن الله تعالى ، والحديث يفيد أن رسول الله ﷺ يسجد حتى يأذن له الله ، فلا وجه للاعتراض مطلقاً[٢] ، وكيف نفسر هذه الآية على أن الشفاعة منفية ، فما معنى **﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾** وكيف تفسر على أنه العمل الصالح ترفعه الملائكة ، وهذا شيء ، والشفاعة شيء آخر ، إنها صورة من فضل الله ورحمته ، وفيها بيان فضل الأنبياء والملائكة يوم القيامة ، وكذا الشهداء والعلماء وسائر الشفعاء.

إن الله تبارك وتعالى يعامل المؤمنين يوم القيامة بفضله لا بعدله ، وبرحمته لا بأعمالهم. قال ﷺ **﴿ لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ﴾** [٣]

هذا .. وفضل الله تعالى لا يتنافى مع عدله ، ورحمته لا تتناقض مع صالح الأعمال كأخذ بالأسباب والأمر كله مرده أولاً وآخراً لله سبحانه وتعالى.

١- سورة البقرة آية ٢٥٥

٢- دفع الشبهات عن السنة النبوية أ.د / عبد المهدي عبد القادر ص ١٩٣

٣- متفق عليه.

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : وقوله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ كقوله ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [١] وكقوله ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [٢] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أن لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة **﴿ آتي تحت العرش فاخر ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع ، قال : فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ﴾** [٣]

١- سورة النجم آية ٢٦

٢- سورة الأنبياء آية ٢٨

٣- تفسير ابن كثير ٣٠٩/١

٨- قال تعالى :

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ استَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [١]

يقول ابن منصور في تفسير الآية : لقد ترك العقل الإنساني حراً بلا قيد ، يفكر بلا حدود ، ويؤمن إذا شاء ، ويكفر إذا أراد ، ويعلن ذلك بجوارحه كيف أراد. إن الدين لله وحده ، وقد شاء أن يختبرنا فخلق السموات والأرض ، ثم خلقنا أحراراً نؤمن إذا شئنا ونكفر إذا أردنا ، ولم يجعل سلطة للأنبياء وهم صفوة البشر على إكراه أحد على الإيمان ، وكل منا ينتهي اختباره بلحظة وفاته ، ويوم قيام الساعة سيواجه كل منا مصيره في يوم اسمه يوم الحساب أو يوم الدين.

ويتكرر نفس المعنى في آيات القرآن في الاحتكام إلى مشيئة البشر وحريتهم المطلقة في الإيمان والكفر ، ومن هذه الآيات : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [٢] ، ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ [٣] ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [٤] ، ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [٥]

هل بعد هذا تأكيد على حرية البشر في الإيمان وحريتهم في الكفر ؟ وحرية الاعتقاد في الله هي قمة الرأي في الإسلام وإذا كان للإنسان في نصوص القرآن الحرية في أن يكفر بالله ، فإذاً له بالتالي الحرية في أن يكفر بالحاكم أو

١- سورة البقرة آية ٢٥٦
٢- سورة المدثر آية ٥٤ ، ٥٥
٣- سورة النبأ آية ٣٩
٤- سورة التكوير آية ٢٧ ، ٢٨
٥- سورة عبس آية ١١ ، ١٢

بأي سلطة دينية أو مدنية ، ومن هنا ينبع المبدأ الإسلامي (لا إكراه في الدين). !!

ونقول : لقد فرض الإسلام "الجهاد" وجعل من أهدافه حرب السلطات الطاغية ، والفتن المضللة ، حتى تتوطد في الأرض حرية الضمير والعقل ، فلا يذل حق ، ولا يهون إيمان ، وذلك هو الجهاد الصحيح والجهاد ضد الإرهاب ، أو هو علاجه الكاسر لشوكته ، الماحق لسطوته ، فاستعمال القوة في البطش والتعدي إرهاب ، ومصادرة هذه القوة حتى يأمن الناس وتقر العدالة ويهدأ الروع جهاد.

هجوم المستعمرين على أقطار الشرق لانتهابها واسترقاق أهلها ، وسلب خيراتها إرهاب ، ومكافحة هذا الهجوم بكل ما وقع في اليد جهاد.

إن الجهاد المثمر يحول الخير من علوم نظرية ومسالك فردية إلى حقائق ثابتة وتقاليد عامة ، ومناهج منظمة ، وإلى جيل يحتضن فكرة لتتلقفها عنه أجيال ، ومن ثم اهتم الإسلام به لعظم الفائدة المرجوة منه ولسعة الدائرة التي يصنعها للحق ، ولا شك أن الاتجاه له أعظم أجراً عند الله من إقبال المرء على خاصة نفسه ، ولو قضى دهره يصوم النهار ، ويقوم الليل.[١]

والإسلام إذ يقرر مبدأ الجهاد ليقرر حرية الاعتقاد : وهي حرية تعب العالم كثيراً في تقريرها ولم نشعر – نحن المسلمين – بضراوة الصراع الذي دار من أجلها ، لأننا توارثناها جيلاً بعد جيل ، وتلقيناها في تعاليم ديننا وتقاليد إسلامنا حقيقة لا تحتمل لغطاً أو جدلاً.

يرفض الإسلام رفضاً حاسماً إكراه أحد على الدخول فيه ، إذ ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ وخطته الفذة أن يشرح منهجه ، وأن يتلو كتابه ، وأن يدع الناس بعد هذا البيان أتم ما يكونون حرية في أخذه أو تركه ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [٢]

١- ليس من الإسلام للشيخ الغزالي ص٢٤ ، ٢٥ بتصرف

٢- سورة الكهف آية ٢٩

الإسلام ما قام يوماً ، ولن يقوم أبداً على إكراه ، لأنه واثق من شيء واحد .. من نفاسة تعاليمه وجودة شرائعه ، كل ما يبتغي من الناس أن يجد مكاناً في السوق العامة يعرض فيه ما لديه على العيون المتطلعة والبصائر الناقدة ، فإذا لم تكن جودة الشيء هي التي تغري بالإقبال عليه وقبوله فلا كان قبول ولا كان إقبال ..! وهذا سر قانونه الوثيق ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [١] ، ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ نعم ولكن كيف ومتى ؟[٢]

قال الله تعالى في الآية ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بين واضح جلي في دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً ، لأن هذا الدين أساسه الاعتقاد ، وأساس المعتقد هو الإيمان ، ومحل الإيمان هو القلب[٣] ، كما في الآية ﴿ **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ** ﴾ [٤]

وقد يكون للإنسان سيطرة على لسان إنسان أو جسده ، فيكره على أن يقول أو يعمل ، ولكن لا سبيل إلى قلبه ، ولا يطلع على ما في القلوب إلاّ الله تعالى علاّم الغيوب ، فما قيمة إكراهه على الدين ، أو إجباره على الإسلام ، لذلك لا يجوز الإكراه في الدين ، وعندما يتم الإكراه على الإسلام ظاهراً يكون هذا نفاقاً ، وليس اقتناعاً ، والله عز وجل يريد من المرء أن يؤمن بكامل

١- سورة البقرة آية ٢٥٦

٢- هذا ديننا للشيخ محمد الغزالي ص٤٩ بتصرف.

٣- تفسير ابن كثير ٣١٠/١ بتصرف.

٤- سورة المجادلة آية ٢٢

الرضى والطواعية ، مع الإذعان والانقياد ، لا بد وأن يسلم المرء قلباً وقالباً ، ويؤمن راضياً مختاراً ، ولذلك ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

"هذا وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار ، وإن كان حكمها عاماً.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت المرأة مقلاتا فتجعل نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله عز وجل ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ . كما روى نحوه فيمن تنصر ولداه ، وكان رجلاً مسلماً ، فأراد أن يكرههما على الإسلام وقد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فيه ذلك."[1]

فالآية تنفي أن يجبر إنسان على الإسلام ، ولا عبرة بقول من قال هي منسوخة بآية القتال أو غيرها ، لأن الله عز وجل فرض القتال ، وفرض الجزية ، ولكن تبقى الآية على معناها وبعمومها ، شريطة أن تفهم فهماً صحيحاً ، فقوله تعالى ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ هذا قبل أن يسلم المرء ، وقبل أن يدخل في الدين ، ثم هو بما منحه الله من نعمة العقل ، وتوج ذلك بإرسال الرسل وقد بلغته رسالة رسول ، وقرأ الكتاب ، ليختار الدين الصحيح ، ثم أبى إلا الكفر ، فقد اختار طريقه وله جزاؤه ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ وأما من اختار الإيمان طواعية واختياراً ورغبة واقتناعاً ، وأعلن أنه رضي بالله تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، فقد صار بذلك عبداً لله تعالى ، فلا يجوز له أن يقول : أنا حر أمام أحكام الله ، أحب منها وأكره ، وآخذ وأدع ، كلا ، لست حراً أمام أحكام الله ، كما قال الله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [2] فالاستدلال

١- تفسير ابن كثير ٣١٠/١ بتصرف.

٢- سورة الأحزاب آية ٣٦

بالآية في هذا المجال باطل يتنافى مع الإيمان الذي أعلنه ، ومع التسليم الذي ارتبط به ، وصدق ربنا إذ يقول ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١)

وكيف يصح هذا من وجه من الوجوه ، وهذا بعض صفات أهل النفاق ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) – وأما أهل الإيمان – ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٣) فهذا حال المؤمن لا يفرق بين حكم وحكم ، ولا أمر و أمر أو نهي ونهي ، بل عليه أن يقبل الإسلام بجملته ، وينقاد له بكليته ، ثم كيف يستشهد بالآية الكريمة على إباحة الكفر ، أو جواز الردة ، فمن أراد الخروج من الإسلام جرح منه ، هكذا ببساطة باسم (لا إكراه في الدين).

فأي دين هذا الذي يدخل فيه المرء ثم يخرج منه ، وأي دين هذا الذي يتلاعب به الصبيان ؟ إن المنافقين أرادوا أن يفعلوا ذلك ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤)

إنه لم يجبرك أحد على الدخول في الإسلام حتى تبيح لنفسك الخروج منه ، فتشكك الناس في دين الله تعالى ، وقد قال النبي ﷺ : ﴿ لا يحل دم امرئ

١- سورة النساء آية ٦٥

٢- سورة النور الآيات ٤٧ : ٥٠

٣- سورة النور آية ٥١ : ٥٢

٤- سورة آل عمران آية ٧٢

مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة﴾ (١)

وقال ﷺ : ﴿ من بدل دينه فاقتلوه ﴾ (٢)

لأن الارتداد عن الإسلام يسلخ المرتد عن المجتمع ويسلبه حق الحياة ، وهذا الحكم شغب عليه بعض الناس ، ورأوه مصادرة لحرية الرأي ، وحرية التدين ، ولحق كل امرئ أن يؤمن إذا شاء وأن يكفر إذا شاء.

ونحن نحترم حق أي إنسان أن يؤمن أو أن يكفر ، ولكن هذا الحق يتقرر لصاحبه وهو فرد لم تتضح له الأمور ، إن له أن يدرس ويوازن ويرجح ، وأن يبقى على ذلك طول عمره ، فإذا آثر الوثنية أو اليهودية ، أو النصرانية لم يعترض أحد ، ويبقى له حقه كاملاً في الحياة – حياة آمنة هادئة – وإذا آثر الإسلام فعليه أن يخلص له ويتجاوب معه في أمره ونهيه وسائر هديه.

وهنا نتساءل : هل من حرية الرأي عند اعتناق الإسلام أن نكسر قيوده ونهدم حدوده ؟ أو بتعبير آخر : هل حرية الرأي تعطي صاحبها في أي مجتمع إنساني حق الخروج على هذا المجتمع ونبذ قواعده ومشاقة أبنائه ؟ هل خيانة الوطن أو التجسس لحساب أعدائه من الحرية ؟ هل إشاعة الفوضى في جنباته والهزء بشعائره ومقدساته من الحرية ؟

إن قضية الارتداد تحتاج إلى إيضاح لتعرف أبعادها ، فالإسلام معرض للأغمار والعباقرة على أنه عقيدة وشريعة ، وكتابه ونهج نبيه يقرران مثلاً أن الله واحد ، وأن الآخرة حق ، وأن القصاص حق ، وأن الصيام حق .. ومعنى ذلك أن الذي يدخل الإسلام يرتضي كل هذه التعاليم وينفذها ، فإذا جاء من يقول : أومن بالله وأرفض الإيمان بالآخرة ، أو أومن بهما وأرفض شريعة

١- رواه البخاري في كتاب الديات ، باب قوله تعالى ﴿ **إن النفس بالنفس** ﴾ ، ومسلم كتاب القسامة باب ما يباح به دم المسلم.

٢- رواه البخاري كتاب الاستتابة ، باب حكم المرتد والمرتدة ، وأبو داود كتاب الحدود باب الحكم فيمن ارتد.

الصيام ، وشريعة القصاص ، وما أشبه ذلك. فهل يترك هذا الشخص يعبث بدين الله على هذا النحو ؟ كلا ، إما أن يتوب إلى رشده ، ويرجع إلى الجماعة ، أو لا ، فالخلاص منه حتم ، ولا نتهم جماعة تؤمن وجودها وتصون عقيدتها وتزود العبث عن كيانها.[١]

وإن الارتداد وسيلة للطعن في الإسلام ، ولعب بالدين ، واستهانة بحقه ، استغلها اليهود قديماً ويستغلها النصارى حديثاً عن طريق عصابات من المبشرين. ومن حق هذه الأمة المظلومة أن يحموا عقائدها وشرائعها ويردوا عنها كيد المتربصين ، ومؤامرات الحاقدين ، وعلى المسلمين أن يدافعوا عن دينهم بالوسائل المشروعة كلها ، وفي جو من الوضوح.

ولعل قائلاً يقول : إذا كان لا إكراه في الدين ، فلماذا الجهاد في الإسلام ؟ ونسارع بالرد فنقول : إنه لا صلة بين القتال والإكراه في الدين ، كما لا صلة بين انتشار الإسلام والجهاد ، فإن الله عز وجل فرض الجهاد ليحرر اختياراً ، لا ليكره مختاراً.

فما معنى هذا ؟ إن من الناس من يريد أن يسلم ولكنه لا يستطيع ، لأن أئمة الكفر يحولون بينه وبين ذلك ، فهو يخشى الطواغيت ، فيأمر الله عز وجل بإزالة تلك الرؤوس العفنة ، وإزاحة تلك الطواغيت الباغية لتتاح الفرصة للشعوب المضطهدة ، وللجماهير المستذلة أن تأخذ حقها في أن تعبر عن رأيها في أن تختار ما تشاء من دين ، ومن ثم قال رب العالمين ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه** ﴾ [٢] كما قال ﴿ **فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ** ﴾ [٣] إذاً فرض القتال في الإسلام ليحرر اختياراً ، لا ليكره مختاراً ، فليس لإكراه الناس على الدخول في الدين ، فهذا جهل ذريع.

١- هذا ديننا للشيخ الغزالي ص١٦٧ : ١٧٠ بتصرف.
٢- سورة الأنفال آية ٣٩
٣- سورة التوبة آية ١٢

ولو نظرت في غزوات النبي ﷺ والفتوحات الإسلامية كلها ، ما وجدت واحدة منها فيها إكراه الناس على دخول الإسلام ، ولا تحمل هذا المعنى من قريب أو بعيد.

وهذه سيرة النبي ﷺ وقد ظل ثلاثة عشر عاماً في مكة ، يدعو إلى كلمة التوحيد ، ويدعوا إلى الدخول في الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل – إن احتاج الأمر – بالتي هي أحسن ، ويلقى اضطهاداً وإيذاءً وعنتاً شديداً ، ومع ذلك لم يؤمر بقتال ، حتى اشتد الإيذاء والاضطهاد وإذن الله تعالى للمسلمين بالهجرة ، ثم بالقتال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [(١)] فالله تعالى أذن بالجهاد للمسلمين بعد الظلم الشنيع الذي وقع عليهم ، والأذى الذي أصابهم ، وهضم حقوقهم ، وأهدر بشريتهم وكرامتهم ، أفيعاب ذلك على الله تعالى ؟!

فالإذن بالجهاد رد للاعتداء كما قال تعالى ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [(٢)] فالجهاد منه ما هو رد لاعتداء المعتدين ، أو لتأديب الناكثين ، أو استرداد حقوق المسلمين ، أو تأمين طريق الدعوة أمام جبهات الكافرين ، أو إغاثة المظلومين من المؤمنين ، والانتصار لهم من الظالمين.

إن أي دعوة لا بد لها من قوة ، وقوة الدعوة الإسلامية هي الجهاد ، وأي دعوة بلا قوة فإنها تستأصل أو تباد ، وواقع الناس أصدق دليل وخير برهان.

١- سورة الحج آية ٣٩ ، ٤٠

٢- سورة البقرة أية ١٩٤

لقد عز المسلمون مع الجهاد في سبيل الله ، فلما أخلدوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، وتقاعسوا عن الجهاد صاروا نهباً لكلاب البشر ، كما صاروا أذل خلق الله في أرض الله ، بل ذلوا لمن كتب الله عليهم الذلة والمسكنة.

فمن يحميهم ومن يدافع عنهم ؟ إنه الجهاد في سبيل الله ، ورفع رايته أمام الأعداء.

فهذه البوسنة والهرسك والشيشان وفلسطين .. إلخ ، أدلة واقعية تثبت للقاصي والداني أن أمة تترك الجهاد تصير فريسة للكلاب ، ونهباً للذئاب ، وتباد مع من باد ولا سبيل ولا منجى إلا مع الجهاد في سبيل الله.[1]

١- انظر بتوسع كتابنا : سماحة الإسلام ص ١١٤ : ١٦٩ ط دار الاستقامة.

٩- قال تعالى :

﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ (١)

زعم الكاتب : أنها تعني أنه لا نفرق بين رسول ورسول ، أو أن نفضل رسولاً على رسول !! لأن ذلك من شأن الله تعالى وحده. !!!

ومعنى هذه الآية : أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كما قال تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾** (٢)

وكيف يجوز لابن منصور هذا أن يقول : لا يجوز أن نفضل رسولاً على رسول ؟!

كيف وقد أخبر الله تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما في قوله تعالى : **﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾** (٣) وقال أيضاً **﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾** (٤) يعني موسى ومحمد ﷺ ، وكذلك آدم ، كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر ﷺ **﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾** ، كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السموات حسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هو محمد ﷺ ، إذ قال : **﴿ فضلت على الأنبياء ... ﴾** كما قال : **﴿ أعطيت خمساً – أو ستاً – لم يعطهن**

١- سورة البقرة أية ٢٨٥

٢- سورة النساء الآيات ١٥٠ : ١٥٢

٣- سورة الإسراء آية ٥٥

٤- سورة البقرة آية ٢٥٣

نبي قبلي .... ﴾ ومن ذلك التفضيل أيضاً : أن الله منحه القرآن ، وختم به النبيين ، وجعل أمته أعظم أمة ولا يحول هذا أن يشترك معه أنبياء آخرون ، كإدريس الذي قال الله عنه ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** ﴾ [(١)] ومراتب الأنبياء في السماء كما في حديث الإسراء ، كما أشرنا.

ومن تفضيل الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ كما قال : ﴿ **أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة ، وأول شافع وأول مشفع ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي** ﴾ [(٢)]

﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ والتفضيل قد يتعلق بالمحيط المقدر للرسول ، والذي تشمله دعوته ونشاطه كأن يكون رسول قبيلة ، أو رسول أمة ، أو رسول جيل ، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال. كذلك يتعلق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو لأمته ، كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية.

وحين ننظر إلى مقامات الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – من أية ناحية ، نجد محمداً – ﷺ – في القمة العليا ، وسواء نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها ، أو من ناحية محيطها وامتدادها ، فإن النتيجة لا تتغير. والنبي ﷺ يقول : ﴿ **ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، ولكن الذي أوتيت كان وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة** ﴾ [(٣)]

ومحمد ﷺ هو الرسول الذي أرسل إلى البشر كافة ، من يوم بعثته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومن ثم كان هو خاتم الرسل ، وكانت رسالته

١- سورة مريم آية ٥٧

٢- أخرجه مسلم.

٣- متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (١/٣٠) ومسلم (١/٩٢) والبخاري (٦/٢٢٤)

خاتمة الرسالات ، ومن ثم انقطع الوحي بعده ، وارتسمت للبشرية في رسالته تلك الوحدة الكبرى ، وأعلن المنهج الواسع الشامل الذي يسع نشاط البشرية المقبل في إطاره.[1]

●●●●●

١- نفير القطبي ٥٠/٣ بتصرف ، والطبري ١/٣ ، ٢ بتصرف.

سورة آل عمران

١٠- قال تعالى :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [١]

قال ابن منصور في معناها : ليس من حق النبي أن يغضب لما فعله المشركون المعتدون ، ولا أن يحكم بتكفير أحد ، فالحكم بين العباد لا يكون إلا لله تعالى.

وبادئ ذي بدء : ننظر إلى سياق الآية حتى يتبين المعنى : قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ، وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٢]

فبهذا كله يذكرهم الله سبحانه ، ويرد ذلك النصر إلى سببه الأول في وسط هذه الظروف التي عاشوها مع غزوة أحد ، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إن الله الذي نصرهم ، ونصرهم لحكمة نص عليها في مجموعة هذه الآيات ، وهم لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم ، كما أن محمداً ﷺ ليس له من هذا الأمر شيء ثم يقول له : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بَلَى إِنْ

١- سورة آل عمران آية ١٢٨

٢- سورة آل عمران الآيات ١٢٣ : ١٢٩

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

فالآن يعلمهم الله أن مرد الأمر كله إليه ، وأن الفاعلية كلها منه – سبحانه – وأن نزول الملائكة ليس إلاّ بشرى لقلوبهم ، لتأنس بهذا وتستبشر ، وتطمئن به وتثبت ، أما النصر فمنه مباشرة ، ومتعلق بقدره وإرادته بلا واسطة ولا سبب ولا وسيلة ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ وهكذا يحرص السياق القرآني على رد الأمر كله إلى الله ، كي لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصلية : قاعدة رد الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة ، وإرادته الفاعلة ، وقدره المباشر ، وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هي الفاعلة ، وإنما هي أداة تحركها المشيئة ، وتحقق بها ما تريده ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ وبمثل هذه التوجيهات المكررة في القرآن ، المؤكدة بشتى أساليب التوكيد ، استقرت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين ، على نحو بديع ، هادئ ، عميق ، مستنير.

عرفوا أن الله هو الفاعل وحده ، وأن الأمر كله لله ، وليس للنبي محمد ﷺ ولا لغيره من الأمر شيء. ثم يبين حكمة هذا النصر .. أي نصر .. وغايته التي ليس لأحد من البشر منها شيء ﴿ **لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾.

إن النصر من عند الله ، لتحقيق قدر الله ، وليس للرسول ﷺ ، ولا للمجاهدين معه في النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصي ، كما أنه ليس له ولا لهم دخل في تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء ! فلا هم أسباب هذا النصر وصانعوه ، ولا هم أصحاب هذا النصر ومستغلوه ، إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده ، لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده : ﴿ **لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ فينقص من عددهم بالقتل ، أو ينقص

من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من سلطانهم بالقهر ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة ، أو ينقص من فاعليتهم في الأرض بالهزيمة ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ أي يصرفهم مهزومين أذلاء ، فيعودوا خائبين مقهورين ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة ، وقد يقودهم إلى الإيمان والتسليم ، فيتوب الله عليهم من كفرهم ، ويختم لهم بالإسلام والهداية .. ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ يعذبهم بنصر المسلمين عليهم ، أو بأسرهم ، أو بموتهم على الكفر الذي ينتهي بهم إلى العذاب ، جزاءً لهم على ظلمهم بالكفر ، وظلمهم بفتنة المسلمين ، وظلمهم بالفساد في الأرض ، وظلمهم بمقاومة الصلاح الذي يمثله منهج الإسلام للحياة وشريعته ونظامه .. إلى آخر صنوف الظلم الكامنة في الكفر والصد عن سبيل الله.

وعلى أية حال فهي حكمة الله ، وليس لبشر منها شيء ، حتى رسول الله ﷺ يخرجه النص من مجال هذا الأمر ليجرده لله وحده – سبحانه – فهو شأن الألوهية المتفردة بلا شريك.

بذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من هذا النصر ، من أسبابه ومن نتائجه ، وبذلك يطامنون من الكبر الذي يثيره النصر في نفوس المنتصرين ، ومن البطر والعجب والزهو الذي تنتفخ به أرواحهم وأوداجهم ، .. وبذلك يشعرون أن ليس لهم من الأمر شيء ، إنما الأمر كله لله أولاً وأخيراً.

وبذلك يرد أمر الناس – طائعهم وعاصيهم – إلى الله ، فهذا الشأن شأن الله وحده ، سبحانه ، شأن هذه الدعوة ، وشأن هؤلاء الناس معها ، طائعهم وعاصيهم سواء ، وليس للنبي ﷺ وليس للمؤمنين معه إلا أن يؤدوا دورهم ، ثم ينفضوا أيديهم من النتائج ، وأجرهم من الله على الوفاء ، وعلى الولاء ، وعلى الأداء.

وملابسة أخرى في السياق اقتضت هذا التنصيص ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فسيرد في السياق قول بعضهم : ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [١] وقولهم : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ [٢] ليقول لهم : إن أحداً ليس له من الأمر شيء ، لا في نصر ولا في هزيمة ، إنما الطاعة والوفاء والأداء هي المطلوبة من الناس.

وأما الأمر بعد ذلك فكله لله ، ليس لأحد منه شيء ولا حتى لرسول الله ، فهي الحقيقة الأصيلة في التصور الإسلامي وإقرارها في النفوس أكبر من الأشخاص وأكبر من الأحداث ، وأكبر من شتى الاعتبارات.

وختم هذا التذكير ببدر ، وهذا التقرير للحقائق الأصيلة في التصور ، الحقيقة الشاملة التي ترجع إليها حقيقة أن أمر النصر والهزيمة مرده إلى حكمة الله وقدره .. يختم هذا التقرير بتقرير أصله الكبير : وهو أن الأمر لله في الكون كله ، ومن ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وفق ما يشاء ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

فهي المشيئة المطلقة ، المستندة إلى الملكية المطلقة ، وهو التصرف المطلق في شأن العباد ، بحكم هذه الملكية لما في السموات وما في الأرض ، وليس هناك ظلم ولا محاباة للعباد ، في المغفرة أو في العذاب ، إنما يقضي الأمر في هذا الشأن بالحكمة والعدل ، وبالرحمة والمغفرة ، فشأنه سبحانه الرحمة والمغفرة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته بالعودة إليه ، ورد الأمر كله له ، وأداء الواجب المفروض وترك ما وراء ذلك لحكمته وقدره ومشيئته المطلقة من وراء الوسائل والأسباب.[٣]

●●●●●

١- سورة آل عمران آية ١٥٤

٢- سورة آل عمران آية ١٥٤

٣- في ظلال القرآن ٤٦٩/١ : ٤٧٢

سورة النساء

١١- قال تعالى :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ (١)

ذهب ابن منصور في تفسير ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ إلى أنها الحيوانات ، سواء كانت حرة طليقة مثل القطط والكلاب والطيور ، أو كانت في خدمتنا مثل الخيول والبغال والحمير والمواشي !!

نقول : كيف وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ (٢) فهل سيتزوج شيئاً من أنواع الحيوانات !! كيف وقد قال تعالى في آية المحارم من النساء ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (٣) فهل الخيول أم الطيور ؟ !! وقد قال تعالى بعدها ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤) كيف وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (٥) بماذا تفسرها ؟ كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ

١- سورة النساء آية ٣٦

٢- سورة النساء آية ٣

٣- سورة النساء آية ٢٤

٤- سورة النساء آية ٢٥

٥- سورة المؤمنون آية ٥ ، ٦

الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ ﴾ [١] وقال تعالى مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ [٢]

وقال تعالى من قبلها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ [٣] .. .. إلخ الآيات.

فهل هذه الآيات وما على شاكلتها بمعنى الحيوانات الحرة أو المقيدة كما زعم ابن .. ..

ولكنه الأمر بالإحسان إلى الرقيق الذين جعلتهم الملابسات (ملك اليمين) ولكنهم يتصلون بأصرة الإنسانية الكبرى بين بني آدم أجمعين.

إنها وقفة من وقفات القرآن الكثيرة التي تحدد العلاقات الإنسانية بين الأحرار والرقيق في المجتمع الإسلامي كما أن التفرقة بين الأحرار وغير الأحرار ليست تفرقة عنصرية تتناول الأصل الإنساني ، كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة في الأرض كلها يومذاك ، إنما بالأصل الواحد ، ويجعل الأصرة الإنسانية والأصرة الإيمانية هي محور الارتباط. كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ [٤] ولك أن تتأمل هذا التعبير الرقيق حين لا يسمي القرآن الرقيقات : رقيقات ولا

١- سورة النور آية ٥٨

٢- سورة الأحزاب آية ٥٢

٣- سورة الأحزاب آية ٥٠

٤- سورة النساء آية ٢٥

جواري ولا إماء ، إنما يسميهن (فتيات) وهو لا يسمى من هن ملك لهم سادة إنما يسميهن (أهلاً) ﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ وهو لا يجعل مهر الفتاة لسيدها ، فمهرها إنما هو حق لها ، لذلك يخرج من قاعدة أن كسبها كله له ، فهذا ليس كسباً ، إنما هو حق ارتباطها برجل ﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾

وهو يكرمهن عن أن يكن بائعات أعراض بثمن من المال ، إنما هو النكاح والإحصان ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ وكلها لمسات واعتبارات تحمل طابع التكريم لإنسانية هؤلاء الفتيات ، حتى وهن في هذا الموضع ، الذي اقتضته ملابسات وقتية ، لا تطعن في أصل الكرامة الإنسانية.

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ وصية بالأرقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة ، أسير في أيدي الناس ، فلهذا ثبت أن رسول الله جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول : ﴿ **الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم** ﴾ [1] فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه ، وقال ﷺ : ﴿ **ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة** ﴾ [2]

وقال ﷺ : ﴿ **للملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق** ﴾ [3]

وقال ﷺ : ﴿ **هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم** ﴾ [4]

١- رواه البخاري.

٢- رواه أحمد والنسائي بسند صحيح.

٣- رواه مسلم.

٤- رواه البخاري كتاب الإيمان ، باب المعاصي من أمر الجاهلية.

كما قال ﷺ : ﴿ **لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ، بل ليقل فتاي وفتاتي** ﴾ [(١)] فندب ﷺ إلى مكارم الأخلاق وحضهم عليها وأرشدهم إلى الإحسان وإلى سلوك طريق التواضع حتى لا يروا لأنفسهم مزية على عبيدهم ، إذ الكل عبيد الله ، والمال مال الله ، لكن سخر بعضهم لبعض ، وملك بعضهم بعضاً إتماماً للنعمة وتنفيذاً للحكمة فإن أطعموهم أقل مما يأكلون ، وألبسوهم أقل مما يلبسون صفة ومقداراً جاز إذا قام بواجبه عليه ، روى مسلم عن عبد الله بن عمرو إذ جاءه قهرمان – خادم – له فدخل فقال : أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : فانطلق فأعطهم ، قال رسول الله ﷺ : ﴿ **كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوتهم** ﴾ [(٢)]

وقال ﷺ : ﴿ **من ضرب عبده حداً لم يأته أو لطمة فكفارته أن يعتقه** ﴾ [(٣)]

لقد جاء الإسلام ، والرق كان أمراً قائماً ووضعاً اجتماعياً اقتصادياً ، بل كان عرفاً دولياً وعالمياً في استرقاق الأسرى وفي استخدام الرقيق ، والأوضاع الاجتماعية المعقدة تحتاج إلى تعديل شامل لمقوماتها وارتباطاتها قبل تعديل ظواهرها وآثارها ، والعرف الدولي يحتاج إلى اتفاقات دولية ومعاهدات جماعية ، ولم يأمر الإسلام بالرق قط ، ولم يرد في القرآن نص على استرقاق الأسرى ، ولكنه جاء فوجد الرق نظاماً عالمياً يقوم عليه الاقتصاد العالمي ، ووجد استرقاق الأسرى عرفاً دولياً ، يأخذ به المحاربون جميعاً ، فلم يكن بد أن يتريث في علاج الوضع الاجتماعي القائم والنظام الدولي الشامل.

وقد اختار الإسلام أن يجفف منابع الرق وموارده حتى ينتهي بهذا النظام كله – مع الزمن – إلى الإلغاء دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها

١- رواه مسلم : كتاب ألفاظ من الأدب وغيرها ، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولي والسيد.

٢- رواه مسلم.

٣- رواه أحمد

ولا قيادتها ، وذلك مع العناية بتوفير ضمانات الحياة المناسبة للرقيق ، وضمان الكرامة الإنسانية في حدود واسعة.

بدأ بتجفيف موارد الرق فيما عدا أسرى الحرب الشرعية ونسل الأرقاء .. ذلك أن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين حسب العرف السائد في ذلك الزمان ، وما كان الإسلام يومئذ قادراً على أن يجبر المجتمعات المعادية على مخالفة ذلك العرف السائد ، الذي تقوم عليه قواعد النظام الاجتماعي والاقتصادي في أنحاء الأرض ، ولو أنه قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان هذا إجراءاً مقصوراً على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين ، بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيئ في عالم الرق هناك ، وفي هذا إطماع للأعداء في أهل الإسلام. ولو أنه قرر تحرير نسل الأرقاء الموجود فعلاً قبل أن ينظم الأوضاع الاقتصادية للدولة المسلمة ولجميع من تضمهم لترك هؤلاء الأرقاء بلا مورد رزق ولا كافل ولا عائل ، ولا أواصر قربى تعصمهم من الفقر والسقوط الخلقي الذي يفسد حياة المجتمع الناشئ .. لهذه الأوضاع القائمة العميقة الجذور لم ينص القرآن على استرقاق الأسرى ، بل قال ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** ﴾ [1] ولكنه كذلك لم ينص على عدم استرقاقهم ، وترك الدولة المسلمة تعامل أسراها حسب ما تقتضيه طبيعة موقفها ، فتفادي من تفادي من الأسرى من الجانبين ، وتتبادل الأسرى من الفريقين ، وتسترق من تسترق وفق الملابسات الواقعية في التعامل مع أعدائها المحاربين ، وبتجفيف موارد الرق الأخرى – وكانت كثيرة جداً ومتنوعة – يقل العدد .. وهذا العدد القليل أخذ الإسلام يعمل على تحريره بمجرد أن ينضم إلى الجماعة المسلمة ويقطع صلته بالمعسكرات المعادية ، فجعل للرقيق حقه كاملاً في طلب الحرية بدفع فدية عنه يكاتب عليها سيده ،

١- سورة محمد آية ٤

ومنذ هذه اللحظة التي يريد فيها الحرية يملك حرية العمل وحرية الكسب والتملك ، فيصبح أجر عمله له ، وله أن يعمل في غير خدمة سيده ليحصل على فديته – أي أنه يصبح كياناً مستقلاً ، ويحصل على أهم مقومات الحرية فعلاً – ثم يصبح له نصيبه من بيت مال المسلمين في الزكاة ، والمسلمون مكلفون بعد هذا أن يساعدوه بالمال على استرداد حريته وذلك كله غير الكفارات التي تقتضي عتق رقبة لبعض حالات القتل الخطأ ، وفدية اليمين ، وكفارة الظهار ، وبذلك ينتهي وضع الرق نهاية طبيعية مع الزمن ، لأن إلغاءه دفعة واحدة كان يؤدي إلى هزة لا ضرورة لها ، وإلى فساد في المجتمع أمكن اتقاؤه.

هذا وفي قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ [1] أو قوله تعالى ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ [2] نقول : إن الزواج من مملوكة فيه رد لاعتبارها وكرامتها الإنسانية ، فهو مؤهل من مؤهلات التحرير لها ولنسلها من سيدها – حتى ولو لم يعتقها لحظة الزواج – فهي منذ اليوم الذي تلد فيه تسمى "أم ولد" ويمتنع على سيدها بيعها ، وتصبح حرة بعد وفاته ، أما ولدها فهو حر منذ مولده.

وكذلك عند التسري بها ، فإنها إذا ولدت أصبحت "أم ولد" وامتنع بيعها ، وصارت حرة بعد وفاة سيدها ، وصار ولدها منه كذا حراً إذا اعترف بنسبه ، وهذا ما كان يحدث عادة.

فالزواج والتسري كلاهما من طرق التحرير التي شرعها الإسلام وهي كثيرة.

على أنه قد يحيك في النفس شيء من مسألة التسري هذه ، فيحسن أن نتذكر أن قضية الرق كلها قضية ضرورة – كما بينا – وأن الضرورة التي اقتضت إباحة الاسترقاق في الحرب الشرعية التي يعلنها الإمام المسلم المنفذ

---

١ - سورة النساء آية ٣

٢ - سورة النساء آيه ٢٤

لشريعة الله ، هي ذاتها التي اقتضت إباحة التسري بالإماء ، لأن مصير المسلمات الحرائر العفيفات حين يؤسرن كان شراً من هذا المصير !

على أنه يحسن ألاّ ننسى أن هؤلاء الأسيرات المسترقات ، لهن مطالب فطرية لا بد أن يحسب حسابها في حياتهن ، ولا يمكن إغفالها في نظام واقعي يراعى فطرة الإنسان وواقعه .. فإما أن تتم تلبية هذه المطالب عن طريق الزواج ، وإما أن تتم عن طريق تسري السيد ، ما دام نظام الاسترقاق قائما ، كي لا ينشرن في المجتمع حالة من الانحلال الخلقي ، والفوضى الجنسية ، لا ضابط لها ، حين يلبين حاجتهن الفطرية عن طريق البغاء أو المخادنة ، كما كانت الحال في الجاهلية.

أما ما وقع في بعض العصور من الاستكثار من الإماء – عن طريق الشراء والخطف والنخاسة – وتجميعهن في القصور ، واتخاذهن وسيلة للالتذاذ الجنسي البهيمي ، وتمضية الليالي الحمراء بين قطعان الإماء ، وعربدة السكر والرقص والغناء ، إلى آخر ما نقلته إلينا الأخبار الصادقة والمبالغ فيها على السواء ، أما هذا كله فليس هو الإسلام ، وليس من فعل الإسلام ، ولا إيحاء الإسلام ، ولا يجوز أن يحسب على النظام الإسلامي ، ولا أن يضاف إلى واقعه التاريخي .

إن الواقع التاريخي الإسلامي هو الذي ينشأ وفق أصول الإسلام وتصوراته وشريعته وموازينه ، هذا وحده هو الواقع التاريخي الإسلامي ، أما ما يقع في المجتمع الذي ينتسب إلى الإسلام ، خارجاً على أصوله وموازينه ، فلا يجوز أن يحسب منه ، لأنه انحراف عنه.

إذن فالإسلام حين أباح للسيد نظام الجواري أراد من وراء ذلك الإحسان إليهن بالمعاملة وتحريرهن من الاسترقاق وأراد أيضاً تخليصهن من التشرد والبغاء ، بينما كانت أسيرات الحرب في الأنظمة الاجتماعية غير الإسلام يهوين إلى حمأة الرذيلة ، ومستنقع الفاحشة بحكم أنه لا عائل لهن ، ولأن سادتهن لا يشعرون نحوهن بنخوة العرض ، وحمية الشرف ، بل كانوا يُشَغِّلون الأسيرات

بعد استرقاقهن بمهنة – الخنا والزنا – ، ويتكسبن من ورائهن بهذه التجارة القذرة ، تجارة الأعراض وانتهاك الحرمات !!

لكن الإسلام العظيم المتحضر لم يقبل البغاء ، ولم يسلك مع الإماء هذا المسلك القذر ، بل حرص على سمعتهن وأخلاقهن ، كما حرص على نظافة المجتمع من دنس الزنا ، وتفشي الفاحشة والإباحية ، فما وجد بداً سوى أن يقصر هؤلاء الجواري على سيدهن فقط ، عليه إطعامهن وكسوتهن وحفظهن من الجريمة وإرضاء حاجتهن الجنسية وهو بالتالي يقضي منهن حاجته ، هذا عدا عن حسن المعاملة التي يلقينها حتى إذا أحسسن من الداخل بحاجتهن إلى الحرية طالبن أسيادهن بها ، بمقتضى نظام المكاتبة الذي شرعه الإسلام. وإذا كبرت عنده وحملت أصبحت "أم الولد" وهي في طريقها إلى التحرير ، بل أصبحت بمثابة الزوجة بما تلقاه من حقوق وتكريم. [١]

١- انظر بتوسع : سماحة الإسلام ص٢٧٢ : ٣١٨ ، شبهات حول الإسلام للأستاذ محمد قطب ص٣٧ : ٤٩ ، حقوق الإنسان في الإسلام د/ علي عبد الواحد وافي ص١٨٣ : ٢١٧ ، سماحة الإسلام د / أحمد الحوفي ، ونظام الرق في الإسلام د/ عبد الله ناصح علوان ص١١ : ٦٣ ، وحقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.

١٢- قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (١)

قال في تفسير أولي **الأمر** : هم أصحاب الشأن وأصحاب الخبرة والاختصاص في الموضوع المطروح وليسوا الحكام.!!

نقول : إن هذه الآية قد سبقها قول الله تعالى **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾** (٢)

فلما تقدم إلى الولاة في هذه الآية وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، تقدم في الآية التي بعدها إلى الرعية فأمر بطاعته عز وجل أولاً ، وهي امتثال أمره واجتناب نواهيه ، ثم بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ونهى عنه ، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم. وطاعتهم تجب فيما كان لله فيه طاعة ، ولا تجب فيما كان لله فيه معصية.

وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال : حق على الإمام أن يحكم بالعدل ، ويؤدي الأمانة ، فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه ، لان الله أمرنا بأداء الأمانة والعدل ، ثم أمر بطاعته.

وقال جابر بن عبد الله ومجاهد : "أولو الأمر" أهل القرآن والعلم ، وهو اختيار مالك رحمه الله ، ونحوه قول الضحاك ، قال : يعني الفقهاء والعلماء في الدين ، وحكي عن مجاهد أنهم أصحاب محمد ﷺ خاصة ، وحكي عن عكرمة أنها إشارة إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خاصة.

١- سورة النساء آية ٥٩

٢- سورة النساء آية ٥٨

قال القرطبي : وأصح هذه الأقوال الأول والثاني ، أما الأول فلأن أصل الأمر منهم والحكم إليهم.

روى الصحيحان عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾ في عبد الله بن حذافة بن قيس ابن عدي السهمي : إذ بعثه النبي ﷺ في سرية ، قال أبو عمر : وكان في عبد الله بن حذافة دعابة معروفة ، ومن دعابته أن رسول الله ﷺ أمره على سرية فأمرهم أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً ، فلما أوقدوها أمرهم بالتقحم فيها ، فقال لهم ، ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتي ؟ وقال : "من أطاع أميري فقد أطاعني" فقالوا : ما آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار ، فصوب رسول الله ﷺ فعلهم ، وقال : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، قال الله تعالى ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ [1] . وأما القول الثاني فيدل على صحته قوله تعالى ﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ [2] فأمر تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة.

ويدل هذا على صحة كون سؤال العلماء واجباً وامتثال فتواهم لازماً ، قال سهل بن عبد الله رحمه الله : لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء ، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم.

وأما القول الثالث فخاص ، وأخص منه الرابع.

وقد قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [3]

١- سورة النساء آية ٢٩ ، والحديث رواه البخاري ومسلم.

٢- سورة النساء آية ٥٩

٣- سورة النساء آية ٨٣

- وحقيقة الطاعة امتثال الأمر ، كما أن المعصية ضدها وهي مخالفة الأمر ، والطاعة مأخوذة من أطاع إذا انقاد ، والمعصية مأخوذة من عصى إذا اشتد.(١)

١- تفسير ابن كثير ٥١٦/١ : ٥١٨ بتصرف ، وتفسير القرطبي ٢٦٠/٥

١٣- قال تعالى :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾ (١)

قال ابن منصور : إنها مطلقة مع أي إنسان بأي لغة ، وبأي كيفية ، وليس شرطاً أن يكون مسلماً أو بتحية الإسلام. !!

ولكنا نقول : بل جاء الإسلام بتحيته الخاصة ، التي تميز المجتمع المسلم ، وتجعل كل شيء فيه – حتى السمات اليومية العادية – متفردة متميزة ، لا تند عنه ولا تضيع في سمات المجتمعات الأخرى ومعالمها ، جعل الإسلام تحيته "السلام عليكم" أو " السلام عليكم ورحمة الله " أو " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" والرد عليها بمثلها أو بأحسن منها بالزيادة على كل منها.

إنها سمة متفردة يحرص المنهج الإسلامي على أن يطبع بها المجتمع المسلم بحيث تكون له ملامحه الخاصة وتقاليده الخاصة ، كما أن له شرائعه الخاصة ونظامه الخاص.

كما أنها محاولة دائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة ،وإفشاء السلام والرد على التحية بأحسن منها ، من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها.

وقد سئل ﷺ : أي العمل خير ؟ قال : ﴿ **تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف** ﴾ (٢)

هذا في إفشاء السلام بين الجماعة المسلمة ابتداء ، وهو سنة ، أما الرد عليها فهو فريضة بهذه الآية.(٣)

١- سورة النساء آية ٨٦

٢- رواه البخاري.

٣- تفسير ابن كثير ٥٣١/١ ، ٥٣٢ بتصرف ، في ظلال القرآن ٧٢٦/٢ بتصرف.

١٤ - قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (١)

قال بن منصور في تفسيرها : ولا شك أن أولئك الناس هم الصحابة والذين اتهموا إنساناً يهودياً ، فقد جعلهم الله من الخونة الآثمين ، وتلك عظمة الرقي التشريعي في الإسلام ، فالبريء له حقوقه حتى لو كان يهودياً ، والمجرم مستحق الاحتقار ولو كان من أقرب أصحاب النبي ﷺ. !!!

ونحن نقول له : يا ابن منصور .. يا من تريد أن تتطاول إلى تلك القمة السامقة لتنال من أصحاب رسول الله ﷺ حتى لا تبقي لنا شيئاً نتشبث به ، ولا تاريخاً نرنو إليه ، ولا قدوة نتطلع إليها ، لقد علمت أن مجتمع الصحابة الأجلاء ، كان فيه منافقون يظهرون الإسلام ، وهم له أعداء يكنون له العداء كأشد ما يكون من الأعداء الألداء.

وقد علم أن هذه الآيات تنزلت في رجل يدعى "بشر بن أبيرق" وهو إن كان من أهل بيت من الأنصار ، إلا أنه كان منافقاً يقول الشعر في ذم الصحابة وينسبه لبعض العرب ، كما كان من شأنه إذ فضح أمره بعد نزول هذه الآيات أن أعلن ردته ، وأعلن مشاقته للرسول ﷺ وعودته إلى الجاهلية.

هذا والآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيراً ، ولا تعرف لها البشرية شبيهاً ، وتشهد – وحدها – بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله ، لأن البشر – مهما ارتفع تصورهم ، ومهما صفت أرواحهم ، ومهما استقامت طبائعهم – لا يمكن أن يرتفعوا – بأنفسهم – إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات ، إلا بوحي من الله ، هذا المستوى الذي يرسم خطا على الأفق لم تصعد إليه البشرية – إلا في ظل هذا المنهج – ولا تملك الصعود إليه أبداً إلا في ظل هذا المنهج كذلك.

١- سورة النساء آية ١٠٥

إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة ، التي تحويها جعبتهم اللئيمة على الإسلام والمسلمين ، والتي حكت سورة البقرة وآل عمران وهذه السورة جانباً منها ، ومن فعلها في الصف المسلم.

في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ، ويؤلبون المشركين ، ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ويطلقون الإشاعات ، ويضللون العقول ، ويطعنون في القيادة النبوية ، ويشككون في الوحي والرسالة ، ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل ، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج .. والإسلام ناشئ في المدينة ، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه.

في هذا الوقت الحرج ، الخطر ، الشديد الخطورة .. كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلاً يهودياً ، اتهم ظلما بسرقة ، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، ولو كانوا أهل بيت من الأنصار في المدينة. وإن كان ذلك ظاهراً أي في الظاهر.

أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي ؟ ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ؟ وكل كلام وكل تعليق وكل تعقيب ، يتهاوى دون هذه القمة السامقة التي لا يبلغها البشر وحدهم بل لا يعرفها البشر وحدهم ، إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء ؟ !!

والقصة التي رويت من عدة مصادر في سبب نزول هذه الآيات أن نفراً من الأنصار – قتادة بن النعمان وعمه رفاعة – غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم (رفاعة) فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم : بنو أبيرق ، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة بن أبيرق ، أو بشير بن أبيرق سرق درعي – وفي هذه

الرواية : أن بشيراً هذا كان منافقاً يقول الشعر في ذم الصحابة ، وينسبه لبعض العرب ! – فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي (اسمه زيد ابن السمين) وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع ، وألقيتها في بيت فلان ، وستوجد عنده ، فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا نبي الله : إن صاحبنا بريء ، وإن الذي سرق الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علماً ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك ، ولما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت في بيت اليهودي ، قام فبرأ "ابن أبيرق" وعذره على رؤوس الناس ، وكان أهله قد قالوا للنبي ﷺ قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي ، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ! قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته ، فقال : عمدت إلى أهل بيت يذكر فيه إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة ؟ قال : فرجعت ، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك ، فأتاني عمي رفاعة ، فقال : يا ابن أخي ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان ، فلم نلبث أن نزلت ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** ﴾ .. الآيات.

فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة ، قال قتادة : لما أتيت عمي بالسلاح ، وكان شيخا قد عمي – أو عشي – في الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولاً ، فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخي هي في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فأنزل الله تعالى ﴿ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ، إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ [1]

---

١ - سورة النساء آية ١١٥ ، ١١٦

قال العلماء : ولا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريق عنهم ليحموهم ويدافعوا عنهم ، فإن هذا قد وقع على عهد النبي ﷺ وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** ﴾ [١] وقوله ﴿ **وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ** ﴾ [٢] والخطاب للنبي ﷺ والمراد منه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه لوجهين : أحدهما : أنه تعالى أبان ذلك بما ذكره بعد قوله ﴿ **هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدنيا** ... ... ﴾ [٣] والآخر : أن النبي ﷺ كان حكماً فيما بينهم ولذلك كان يعتذر إليه ولا يعتذر هو إلى غيره ، فدل على أن القصد لغيره.

فقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** ﴾ أي بني أبيرق .. وخصيماً : أي محامياً ومدافعاً ومجادلاً عنهم ﴿ **وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ** ﴾ أي لِما قلتَ لقتادة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾.[٤]

إنها في نفر من بيت واحد ، وليست في الصحابة يا زنديق ، وهو بيت فيه من اتهم بالنفاق ، صاحب الشأن ، إن الصحابة قد زكاهم الله تعالى وأثنى عليهم خيراً في كثير من آيات القرآن الكريم ، وفضائلهم في الدين كثيرة لا تحصى.

كيف وقد قال الله عز وجل ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [٥].

فهل بعد ذلك الرضى من الله عز وجل والرضوان يأتي هذا الزنديق ليقول عن الصحابة إنهم خونة آثمون ؟ !!

١- سورة النساء آية ١٠٥

٢- سورة النساء آية ١٠٧

٣- سورة النساء آية ١٠٩

٤ - تفسير ابن كثير ٥٥٠/١ : ٥٥٤ بتصرف ، في ظلال القرآن ٧٥٠/٢ : ٧٥٦ بتصرف.

٥- سورة التوبة آية ١٠٠

كما قال تعالى : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا** ﴾ (١)

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٢)

وكذا قال : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ (٣) ، ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** ﴾ (٤)

إن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ (٥)

كيف وقد قال النبي ﷺ لجهينة : ﴿ **لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه** ﴾ (٦)

وقال أيضاً : ﴿ **خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** ﴾ (٧)

١- سورة الفتح آية ٢٩

٢- سورة الحشر آية ٨ ، ٩

٣- سورة البقرة آية ١٤٣

٤- سورة النمل آية ٥٩

٥- سورة آل عمران آية ١١٠

٦- رواه البخاري ومسلم.

٧- رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ : ﴿ الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه ﴾ (١)

ورضي الله عن "جابر بن عبد الله" إذ قال : "إذا لعن آخر هذه الأمة أولها ، فمن كان عنده علم فليظهره ، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد ﷺ." (٢)

فكيف يتجرأ هؤلاء الأقزام الذين هم امتداد الخوارج والشيعة على الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ ؟ ونحن – المسلمين – لا نعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، وكل من ادعى العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ فهو كاذب لكنهم شموس تتفاوت أقدارها ، وتتباين في أنواع فضائلها ، إلا أنها كانت من الفضائل في مرتقى درجاتها ، لقد كان الصحابة أسمى أخلاقاً ، وأصدق إخلاصاً لله تعالى ، وترفعاً عن خسائس الدنيا ، لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ هم قدوتنا في ديننا ، وهم حملة الكتاب الإلهي والسنة المحمدية إلى الذين حملوا عنهم أماناتها حتى وصلت إلينا ، وإن من حق هذه الأمانات على أمثالنا أن ندرأ عن سيرة حفظتها الأولين كل ما ألصق بهم من إفك ظلماً وعدواناً ، لتكون صورتهم التي تعرض على أنظار الناس هي الصورة النقية الصادقة التي كانوا عليها ، فتحسن القدوة بهم ، وتطمئن النفوس إلى الخير الذي ساقه الله للبشر على أيديهم.

وقد اعتبر في التشريع الإسلامي أن الطعن فيهم طعن في الدين الذي هم رواته ، وتشويه سيرتهم تشويه للأمانة التي حملوها ، وتشكيك في جميع الأسس التي قام عليها كيان التشريع في هذه الملة الحنيفية السمحة ، إن الله اصطفى لهذه الأمة خير الرسل ، وأنزل عليه خير الكتب ، وجعل هذه الأمة خير الأمم مما يدل على أن الله عز وجل اختار لحمل هذا الدين وصحبة رسوله ﷺ خير البشر بعد الأنبياء والمرسلين.(٣)

١- رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه.

٢- العواصم من القواصم لأبي بكر العربي.

٣- العواصم من القواصم ص٤٧ بتصرف ، وكتابنا : الخوارج كلاب جهنم ص ١٤٠ : ١٤٦ بتصرف.

كما قال ابن مسعود ﷺ : إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ.[١]

كما قال : من كان مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، فأولئك أصحاب محمد ﷺ أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم فإنهم على الهدى.[٢]

●●●●●

١- تهذيب شرح الطحاوية د/ صلاح الصاوي ص٢٩٦
٢- العواصم من القواصم ص١٨٨

سورة المائدة

١٥- قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

يقول : إنها مرتبطة بالصراع والحروب ، فهي في المحاربين المعتدي لا غير ، لأن القرآن سوى بيننا وبين أهل الكتاب من حيث التقسيم إلى سابقين ومتوسطين وظالمين ، فقال عنهم **﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾**(٢) كما قال عنهم **﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾**(٣) ، وقال عنا : **﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ... ﴾**(٤) وفي سورة الواقعة **﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ... ... ﴾**(٥) ، إنها تتحدث عن علاقة تآمرية بين اليهود والمنافقين ، وحيث كان هناك صراع وحرب نزل المنع من موالاة أولئك اليهود والنصارى المحاربين للدولة ، وفي الوقت الذي نهى الله تعالى فيه عن موالاة المحاربين المعتدين من أهل الكتاب في سورة المائدة ، فإنه في نفس السورة أحل الطعام والتزاوج بين أهل الكتاب والمسلمين ، أي أن تشريع الموالاة أو الانتماء في التحريم والإباحة مرتبط أساساً بالحرب والسلام.

كيف وقد قال الله تعالى – عن إخواننا النصارى ومودتهم لنا – **﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾** (٦) أ.هـ.

١- سورة المائدة آية ٥١

٢- سورة المائدة آية ٦٦

٣- سورة آل عمران آية ١١٤

٤- سورة فاطر آية ٣٢

٥- سورة الواقعة آية ١٠

٦- سورة المائدة آية ٨٢

ونقول : إن الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم حذر من ولاية غير المؤمنين ، أو عدم البراءة من الكافرين ، وقرر أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه في الحياة.

إذ قال تعالى : **﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ .. ﴾** (١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٣) .. الخ

لماذا يوالي المؤمن أعداء الله ؟ إنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون ، ومن فعل فليس من الله في شيء ، أي لا علاقة له بالله في شيء ، ولا صلة بينه وبين الله في شيء ، مجرد من يتولى وينصر أو يستنصر أولئك الكفار الذين يعادون دين الله وحكمه ويشتد التحذير من هذه الولاية التي تذهب بالدين من أساسه ، وتخرج المسلم من إسلامه إذا والى أعداء الله ، سواء كانت الموالاة بمودة القلب ، أو بنصره ، أو باستنصاره سواء **﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ..﴾** هكذا ، ليس من الله في شيء لا في صلة ولا نسبة ولا دين ولا عقيدة ، ولا رابطة ولا ولاية ، فهو بعيد عن الله ، منقطع الصلة تماماً في كل شيء تكون فيه الصلات ، ورخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات ، ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل ، قال ابن عباس رضي الله

١- سورة آل عمران آية ٢٨

٢- سورة آل عمران آية ١١٨

٣- سورة آل عمران آية ١٤٩

عنهما : "ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان" ، فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر ، ولا أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية.

ومن ثم نجد هذا التحذير الحاسم المخيف ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [1] وما كان يفزع المسلم – حينذاك – ما يفزعه أن يرى نفسه منتكساً إلى الكفر بعد الإيمان ، وراجعاً إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة ، وهذا شأن المسلم الحق في كل زمان ، ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطاً يلهب الضمير ، ويوقظه بشدة لصوت النذير ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾ وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب ، من الإيمان إلى الكفر ؟ وأي ربح يتحقق بعد خسارة الإيمان ؟ وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم ، فهو وهم ، يضرب السياق صفحاً عنه ، ليذكرهم بحقيقة النصرة والحماية ﴿ **بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ** ﴾ [2]

فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمن عندها الولاية ، ويطلبون عندها النصرة ، ومن كان الله مولاه ، فما حاجته بولاية أحد من خلقه ؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد ؟!

والآية التي نحن بصددها تنهى عن اتخاذ اليهود والنصارى – خاصة – أولياء ، وهذا التحذير– بل التهديد – بأن من يتولهم فهو منهم ، هي على إطلاقها بدون مناسبات أو ملابسات ، أو حالات ، أو حالة دون حالة.

وفي الآيات الإشارة إلى أن الذين في قلوبهم مرض يوالونهم ، ويحتجون بأنهم يخشون الدوائر .. مشيرة إلى موقف عبد الله بن أبي بن سلول ، وقوله في

١- سورة آل عمران آية ١٠٠

٢- سورة آل عمران آية ١٥٠

ولائه لليهود وولاء اليهود له : إني رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالي ، إن هذا القرآن يربي الفرد المسلم على أساس إخلاص ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة ، وعلى ضرورة المفاصلة الكاملة بين الصف الذي يقف فيه ، وكل صف آخر لا يرفع راية الله ، ولا يتبع قيادة رسول الله ، ولا ينضم إلى الجماعة التي تمثل حزب الله ، وإشعاره أنه موضع اختبار الله.

فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس ، ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها .. أمران مهمان سواء في تحقيق شرائط الإيمان أو في التربية الشخصية للمسلم ، أو نظام الجماعة المسلمة.

هذا ومعنى الولاية التي ينهى الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى .. إنما تعني التناصر والتحالف معهم ، ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم ، فبعيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين ، إنما هو ولاء التحالف والتناصر ، الذي كان يلتبس على المسلمين أمره ، فيحسبون أنه جائز لهم ، بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر ، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام ، وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة ، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله ، بعدما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود في المدينة.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء ، واتخاذهم أولياء شيء آخر ، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته ، بوصفه حركة منهجية واقعية ، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية.

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة ، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب منها ، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها ، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق ، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة ، ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب .. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة ، وأن هذه شأن ثابت لهم ، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه ، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم ، وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة ، وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر .. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم. وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب ، وهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه ، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له.

وسذاجة أية سذاجة ، وغفلة أية غفلة ، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين ! أمام الكفار والملحدين ، فهم مع الكفار والملحدين ، إذا كانت المعركة مع المسلمين !!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان ، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد – بوصفنا جميعاً أهل دين ! – ناسين تعليم القرآن كله ، وناسين تعليم التاريخ كله ، فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا

يقولون للذين كفروا من المشركين ﴿ هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ [١] وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة ، وكانوا لهم درعاً وردءاً ، وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام ، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس ، وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم ، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان .. في الحبشة والصومال وأريتريا والجزائر ، والبوسنة والهرسك ، وكوسوفا .. الخ ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية الوثنية في يوغوسلافيا ، والصين والتركستان ، والهند ، والشيشان ، وأوزبكستان ، وطاجيكستان .. .. وفي كل مكان.

ثم يظهر بيننا من يظن – في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة – أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ، ندفع به المادية الإلحادية عن الدين ، أو بهم نحتمي من الظالمين الغاشمين ، إن هؤلاء لا يقرأون القرآن ، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام ، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم ، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض ، تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس ، الموقف الذي لا يمكن تبديله ، لأنه الموقف الطبيعي الوحيد.

وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني ، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ

١- سورة النساء آية ٥١

﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ [١] لقد كان هذا تحذيراً عنيفاً للجماعة المسلمة في المدينة ، ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه ، فهو عنيف ، نعم ، ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة ، فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى – وبعضهم أولياء بعض – ثم يبقى له إسلامه وإيمانه ، وتبقى له عضويته في الصف المسلم ، الذي يتولى الله ورسوله والذين آمنوا .. فهذا مفرق الطريق وما يمكن أن يتميع حس المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ، وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف إقامة نظام واقعي في الأرض فريد ، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ، ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى.

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية ، يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح ، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله ، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي. إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلاّ الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ، ولا يقبل دونه بديلاً ، ولا يقبل فيه تعديلاً – ولو طفيفاً – هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [٢] ، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [٣] ، ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [٤] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ... ﴾ [٥] أ.هـ [٦]

١- سورة المائدة آية ٥١

٢- سورة آل عمران آية ١٩

٣- سورة آل عمران آية ٨٥

٤- سورة المائدة آية ٤٩

٥- سورة المائدة آية ٥١

٦- في ظلال القرآن ٢/٩٠٧ : ٩١٢ بتصرف.

* وأما قوله تعالى عن أهل الكتاب ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً . مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (١)

إنه الإنصاف للقلة الخيرة المؤمنة من أهل الكتاب ، إذ يقرر السياق أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء ، فهناك المؤمنون ، يصور حالهم مع ربهم ، فإذا هي حال المؤمنين الصادقين ، ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين ، وهي صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب ، فقد آمنوا إيماناً صادقاً عميقاً وكاملاً شاملاً ، وانضموا للصف المسلم وقاموا على حراسة هذا الدين ، آمنوا بالله واليوم الآخر ، وقد نهضوا بتكاليف الإيمان ، وحققوا سمة الأمة المسلمة التي انضموا إليها – خير أمة أخرجت للناس – فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وقد رغبت نفوسهم في الخير جملة ، فجعلوه الهدف الذي يسابقون فيه ، فسارعوا في الخيرات ، ومن ثم هذه الشهادة العلوية لهم أنهم من الصالحين ، وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يبخسوا حقاً ولن يكفروا أجراً مع الإشارة إلى أن الله سبحانه علم أنهم من المتقين.

هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر ، الكافرون : الذين لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ، ولن تنفعهم نفقة ينفقونها في الدنيا ، ولن ينالهم شيء منها في الآخرة ، لأنها لم تتصل بخط الخير الثابت المستقيم ، الخير المنبثق من الإيمان بالله على تصور واضح ، وهدف ثابت ، وطريق موصول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) أ.هـ(٣)

١- سورة آل عمران الآيات ١١٣ : ١١٥

٢- سورة آل عمرن آية ١١٦ ، ١١٧

٣- في ظلال القرآن ١/٤٥٠ بتصرف.

* وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

إن هاتين الآيتين تقرران أصلاً كبيراً من أصول التصور الإسلامي ، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية ، إن الله – سبحانه – يقول لأهل الكتاب – ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب – إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم ، هذا جزاء الآخرة ، وأنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم – كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل – لصلحت حياتهم الدنيا ، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ، ووفرة النتاج وحسن التوزيع وصلاح أمر الحياة ، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله ، إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا ، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده – وإن كان هو المقدم وهو الأدوم – ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة .. وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية .. يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله ﴿ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾.

وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله .. فهي كلها لحسابنا نحن .. لحساب هذه البشرية .. في الدنيا والآخرة جميعاً .. وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعاً.

---

١ - سورة المائدة أية ٦٥ ، ٦٦

ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول : إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب ، فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم – وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة – فأولى بالشرط الذي أنزل إليهم القرآن .. الذين يقولون : إنهم مسلمون ، أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد ، وقد انتهى إليه كل دين قبله ، ولم يعد هناك دين يقبله الله غيره ، أو يقبل من أحد غيره.[1]

* وأما قوله تعالى : ﴿ ... **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى** ﴾ [2] ... الآيات

فهذه الآيات تصور حالة ، وتقرر حكماً في هذه الحالة ، تصور حالة فريق من أتباع عيسى عليه السلام ، الذين قالوا : ﴿ **إِنَّا نَصَارَى** ﴾ وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا.

ومع متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالاً للشك في أنها تصور حالة معينة ، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين ، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها ، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة ، وموقف هذه المعسكرات منهم ، لذلك نجد من الضروري أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص.

إن الحالة التي تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس ، قالوا : إنا نصارى ، هم أقرب مودة للذين آمنوا ، ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون عن الحق حين يتبين لهم.

١- في ظلال القرآن ٢/٩٣٠ : ٩٣٦ بتصرف.

٢- سورة المائدة آية ٨٢

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد ، ولا يدع الأمر مجملاً ومعمماً على كل من قالوا : إنا نصارى .. إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعنيها : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ** ﴾ (١) فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس ، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا .. إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه ، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير ، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثير درجة أعلى من أن يفي بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدي ما لا يؤديه القول ، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف. ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن ، والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان .. إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق ، إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً .. موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة ﴿ **يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ** ﴾

فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق ، موقف الاستماع والمعرفة ، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر ، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة ، مع دعاء الله – سبحانه – أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق.

١- سورة المائدة آية ٨٣ ، ٨٤

ولا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا ، بل يتابع خطاه لتكملة الصورة ، ورسم المصير الذي انتهوا إليه فعلاً ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [1]

لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم ، وصدق عزيمتهم على المضي في الطريق ، وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه ، ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه ، لقد علم الله منهم هذا كله ، فقبل منهم قولهم وكتب لهم الجنة جزاء لهم وشهد لهم – سبحانه – بأنهم محسنون – والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام – وأنه يجازيهم جزاء المحسنين.

إذاً هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنه القرآن الكريم ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه ، بل يستجيب له تلك الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة ، وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للإسلام ، والانضمام للصف المسلم. فليس كل من قالوا : إنهم نصارى إذن داخلين في ذلك الحكم ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها ، إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآني أمرها غامضاً ، ولا ملامحها مجهلة ، ولا موقفها متلبساً بموقف سواها في كثير ولا قليل.

ولقد وردت روايات لها قيمتها في تحديد من هم النصارى المعنيون بهذا النص:

أورد القرطبي في تفسيره ، وهذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه ، لما قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى – حسب ما هم مشهور في سيرة ابن إسحاق وغيره – خوفاً من المشركين وفتنتهم ، وكانوا ذوي عدد ، ثم هاجر

١– سورة المائدة آية ٨٥

رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول إليه ، حالت بينهم وبين رسول الله ﷺ الحرب ، فلما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشي وابعثوا له برجلين من ذوي رأيكم يعطيكم من عنده ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر ، فبعث كفار قريش "عمرو بن العاص" و "عبد الله بن أبي ربيعة" بهدايا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ "عمرو بن أمية الضمري" وكتب معه إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر ابن أبي طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة "مريم" فقاموا تفيض أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى** ﴾ وقرأ إلى "الشاهدين" [١]

وهذا الذي نقرره في معنى هذا النص ، والذي يدل عليه السياق بذاته ، وتؤيده الرواية التي أسلفنا ، هو الذي يتفق مع بقة التقريرات في هذه السورة وفي غيرها عن موقف أهل الكتاب عامة – اليهود والنصارى – من هذا الدين وأهله ، كما أنه هو الذي يتفق مع الواقع التاريخي الذي عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرناً.

كذلك صدق الواقع التاريخي ما حذر الله الأمة المسلمة إياه ، من اليهود والنصارى سواء ، وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام عليهم المدينة ، في صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة ، وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم ، فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيش الروم ، فيما عدا حالات التي وقع

١- رواه أبو داود.

فيها ما تصفه الآيات التي نحن بصددها فاستجابت قلوب للإسلام ودخلت فيه – وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك ، يلاقون من ظلمها الوبال !– أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يخبُ أوارها قط – إلا في الظاهر – منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك.

لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان ، كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس ، ثم في حملات الاستعمار والتنصير "التبشير" على الممالك الإسلامية في أفريقيا أولاً ثم في العالم كله أخيراً.

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام – على كل ما بينهما من أحقاد – ولكنهم كانوا في حربهم للإسلام ، كما قال عنهم العليم الخبير ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة ، ثم مضوا في طريقهم ينقضون هذا الدين عروة عروة ، وبعد أن أجهزوا على عروة "الحكم" ها هم أولاء يحاولون الإجهاز على عروة "الصلاة" !

ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين ، فيؤيدون الوثنية والإلحاد حيثما وجدا ضد الإسلام ، عن طريق المساعدات المباشرة تارة ، وعن طريق الضوء الأخضر تارة ، وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تارة أخرى ، وليس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبيين منا ببعيد[١] ، وكذا ما يدور من أحداث البوسنة والهرسك ، وكوسوفا ، – وأخيراً وليس آخراً – الشيشان ، وحادث الطائرة كذلك ، وما تم فيه تداخل بين الصهيونية والصليبية ، وما هو واضح من تعاون

١– في ظلال القرآن ٢/٩٦٢ : ٩٦٦ بتصرف.

أمريكا مع إسرائيل في قضية فلسطين والقدس ، هذا فضلاً عن تكاتفهم على تولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض .. الخ

●●●●●

سورة الأنعام

١٦- قال تعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١)

قال ابن منصور : الذي يعطي نفسه تفويضاً بالحكم على الناس ومحاكمتهم في الدنيا إنما يضع نفسه في موقع الألوهية ، لأن الحكم بين الناس يوم القيامة وعلى أعمال الناس وعقائدهم في الدنيا لا يكون إلا لله تعالى وحده إذ قال ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ ؟ !

ونقول : - كما قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى - : إن السياق يبدأ بتقرير جهة الحاكمية في أمر العباد كله ، تمهيداً لتقرير جهة الحاكمية في التحليل والتحريم في الذبائح ، الأمر الذي يزاول فيه المشركون حق الحاكمية افتراء على الله واعتداء على سلطانه ويمهد لهذا الأمر تمهيداً طويلاً ، كما نلاحظ من سياق الآيات في هذا الموضوع ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٢)

ومن هذا التتابع ، وهذا الربط ، وهذا التوكيد ، تتمثل طبيعة نظرة الإسلام لقضية التشريع والحاكمية في شئون الحياة اليومية ، ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا .. ﴾ إنه سؤال على لسان رسول الله ﷺ - للاستنكار - استنكار أن يبتغي

١- سورة الأنعام آية ١١٤

٢- سورة الأنعام الآيات ١١٤ : ١١٧

حكماً غير الله في شأن من الشئون على الإطلاق ، وتقرير لجهة الحاكمية في الأمر كله ، وإفرادها بهذا الحق الذي لا جدال فيه ، ونفي أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالباً حكمه في أمر الحياة كله ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا** .. ﴾ ؟

ثم تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً .. إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ، ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه فيما يعرض لهم من مشكلات الحياة ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** ﴾ لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته ، ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلاً ، محتوياً على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة ، كما أنه تضمن أحكاماً تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة ، وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة ، هذا ما يقرره الله – سبحانه – عن كتابه ، فمن شاء أن يقول : إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل ، ولكن ليقل معه : إنه – والعياذ بالله – كافر بهذا الدين ، مكذب بقول رب العالمين. !

ثم إن هناك من حولهم ملابسة أخرى تجعل ابتغاء غير الله حكماً في شأن من الشؤون أمراً مستنكراً غريباً .. إن الذين أوتوا الكتاب من قبل يعلمون أن هذا الكتاب منزل من عند الله ، وهم أعرف بالكتاب لأنهم من أهل الكتاب ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ ولقد كانت هذه ملابسة حاضرة في مكة وفي الجزيرة ، يخاطب الله بها المشركين ، سواء أقر أهل الكتاب بها وجهروا – كما وقع من بعضهم ممن شرح الله صدره للإسلام – أو كتموها وجحدوها – كما وقع من بعضهم – فالأمر في الحالين واحد ، وهو إخبار الله – سبحانه – وخبره هو الصدق أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق ، وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا

الحق الذي يتلبس به ، ومن هذا الحق الذي يحتويه ، وما يزالون -- من أجل علمهم بهذا كله – يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب ، حربا لا تهدأ ، وأشد هذه الحرب وأنكاها هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ، إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر ، وجعل غير الله حكماً ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود ، وإقامة ألوهيات أخرى في البلاد التي كانت الألوهية فيها لله وحده ، يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه ، ولا تشاركها شريعة أخرى ، ولا يوجد إلى جوار كتاب الله كتب أخرى ، تستمد منها أوضاع المجتمع ، وأصول التشريعات ، ويرجع إليها ويستشهد بفقراتها كما يستشهد المسلم بكتاب الله وآياته.

وأهل الكتاب – من صليبيين وصهيونيين – من وراء هذا كله ، ومن وراء كل وضع وكل حكم يقام لمثل هذه الأهداف الخبيثة.[1]

●●●●●

١- في ظلال القرآن ٣/١١٩٣ : ١١٩٥ بتصرف.

سورة الأعراف

١٧ - قال تعالى :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ (١)

قال ابن منصور في تفسيرها : هي أرض مصر وصفها القرآن بالأرض المباركة ، وأورثها بني إسرائيل.!!

ونقول : هذا محض كذب وافتراء ، فبالنظر إلى السياق القرآني الذي عرض لنا صفحة من مصير المكذبين بالآيات والغافلين عنها ، حيث الغرق والهلاك ، ذكر صفحة أخرى ، وهي صفحة استخلاف المستضعفين ، ذلك أن استخلاف بني إسرائيل - في الفترة التي كانوا أقرب ما يكونون فيها إلى الصلاح وقبل أن يزيغوا فيكتب عليهم الذل والتشرد - لم يكن في مصر ، ولم يكن في مكان فرعون وآله ، إنما كان في أرض الشام ، **وبعد** عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون - بعد وفاة موسى عليه السلام ، وبعد التيه أربعين سنة كما جاء في السورة الأخرى - ولكن السياق يطوي الزمان والأحداث ، ويعجل بعرض الاستخلاف هنا تنسيقاً لصفحتي المشهد المتقابلتين **﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾** (٢)

على أننا نحن البشر - الفانين المقيدين بالزمان - إنما نقول "قبل" و "بعد" لأننا نؤرخ للأحداث بوقت مرورها بنا وإدراكنا لها ، لذلك نقول : إن استخلاف القوم الذين كانوا يستضعفون ، كان متأخراً عن حادث الإغراق ، ذلك إدراكنا البشري ، فأما الوجود المطلق والعلم المطلق فما "قبل" عنده وما "بعد" ؟!

١- سورة الأعراف آية ١٣٧

٢- سورة الأعراف آية ١٣٧

والصفحة كلها معروضة له سواء ، مكشوفة لا يحجبها زمان ولا مكان ، ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ [1] ، ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [2] ، وهكذا يسدل الستار على مشهد الهلاك والدمار في جانب ، وعلى مشهد الاستخلاف والعمار في الجانب الآخر.

وإذا فرعون الطاغية المتجبر وقومه مفرقون ، وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة ، وما كانوا يقيمون من عمائر فخمة قائمة على عمد وأركان ، وما كانوا يعرشون من كروم وثمار .. إذ هذا كله حطام ، في ومضة عين ، أو في بضع كلمات قصار.

مثل يضربه الله للقلة المؤمنة في مكة ، المطاردة من الشرك وأهله ، ورؤيا في الأفق لكل عصبة مسلمة تلقى من مثل فرعون وطاغوته ، ما لقيه الذين كانوا يستضعفون في الأرض ، **فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة – بما صبروا – لينظر كيف يعملون.**[3]

والشاهد هو أن الأرض هي الشام وليست مصر ، وعلى هذا إجماع المفسرين. قاله الحسن البصري وقتادة وغيرهما.[4]

فإن قال قائل ، فإن معناه في مشارق أرض مصر ومغاربها ، فإن ذلك بعيد من المفهوم في الخطاب ، مع خروجه عن أقوال أهل التأويل والعلماء بالتفسير.[5]

١- سورة النحل آية ٦٠

٢- سورة الإسراء آية ٨٥

٣- في ظلال القرآن ٣/١٣٦٠ . ١٣٦١

٤- تفسير ابن كثير ٢/٢٤٢ بتصرف.

٥- تفسير الطبري ٩/٤٣

١٨- قال تعالى :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١]

قال ابن منصور : فالنبي لا يعلم الغيب ولذلك فإنه لم يعلم بحقيقة النفاق لدى بعض الناس في المدينة ، ونحن أولى بالجهل منه بالإيمان والتقوى ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ﴾ [٢] فليس له الحكم لأحد أو على أحد. !!

ونقول لابن منصور : اعلم – أيها الجاهل – أن عدم علم الغيب ليس جهلاً ، وأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب من تلقاء نفسه ، ولكن الله عز وجل يطلعه على بعض الغيبيات ، كما قال ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [٣]

وأما عن الآية التي بين أيدينا ، فهي حديث عن الساعة ، وهي – ولا شك – من الغيب الذي استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه .. ولكن المشركين يسألون الرسول عنها ، إما سؤال المختبر الممتحن ، وإما سؤال المتعجب المستغرب ، وإما سؤال الساخر المستنكر المستهتر ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ [٤] ؟ أي متى موعدها الذي إليه تستقر وترسو ؟

والرسول ﷺ بشر لا يدعي الغيب ، مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه ، وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية ، وأنه هو بشر لا يدعي شيئاً خارج بشريته ولا يتعدى حدودها ، إنما يعلمه ربي ويوحي إليه ما يشاء ﴿ قُلْ إِنَّمَا

١- سورة الأعراف آية ١٨٨

٢- سورة النساء آية ٢٥

٣- سورة الجن الآيات ٢٦ : ٢٨

٤- سورة الأعراف آية ١٨٧

عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [١] فهو – سبحانه – مختص بعلمها ، وهو لا يكشف عنها إلا في حينها ، ولا يكشف غيره عنها. ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قد اختص سبحانه به ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢]

وليس الأمر أمر الساعة وحده ، إنما هو أمر الغيب كله ، فلله وحده علم هذا الغيب ، لا يطلع على شيء منه إلا من شاء بالقدر الذي يشاء ، في الوقت الذي يشاء .. لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

والرسول ﷺ وهو من هو ، وقربه من ربه هو قربه ، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام غيب الله بشر من البشر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، وأنه لا يطلع على الغيب ، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب ، ولا يرى مآل أفعاله ، ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيراً أقدم ، وإن رآها سوءاً أحجم ، إنما هو يعمل ، والعاقبة تجيء كما قدر الله في غيبه المكنون ﴿ قُلْ : لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾

وبهذا الإعلان تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق ، من الشرك في أية صورة من صوره ، وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر في شيء منها ، ولو كان هذا البشر محمداً رسول الله وحبيبه ومصطفاه – عليه صلوات الله وسلامه – فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية ، ويقف العلم البشري ، وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله ﷺ وتتحدد وظيفته : ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾. [٣]

●●●●●

١- سورة الأعراف آية ١٨٧

٢- سورة الأعراف آية ١٨٧

٣- في ظلال القرآن ١٤٠٨/٣ : ١٤١٠ بتصرف.

سورة التوبة

١٩- قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١)

قال ابن منصور في تفسيرها : فالآية تتحدث عن النفرة للقتال ، وضرورة إرسال فرقة استطلاع تتعرف على الدين أو الطريق ، ثم تنذر الناس وتحذرهم

وأما التفقه في الدين فإنه يعني العلم والبحث العقلي والمادي في كل شيء. !!

والصواب في تفسير هذه الآية : أن الجهاد ليس على الأعيان – في كل زمان ومكان – وأنه فرض كفاية – في الغالب الأعم – وفي مثل هذا الحال لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا كافة ، حتى لا يضيع من وراءهم من العيال ، فليخرج فريق منهم للجهاد وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم ، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع ، وما تجدد من نزوله على النبي ﷺ ، وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا .. ﴾ (٢) وللآية التي قبلها ، على قول مجاهد وابن زيد.

﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم ، لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، والنبي ﷺ مقيم لا ينفر فيتركوه وحده ، ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ ﴾ بعدما علموا أن النفير لا يسع جميعهم ﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ وتبقى بقيتها مع النبي ﷺ ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا ، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه ،

١- سورة التوبة آية ١٢٢

٢- سورة التوبة آية ٣٩

وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة ، وأنه على الكفاية دون الأعيان ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [١] فدخل في هذا من لا يعلم الكتاب والسنة.

﴿ **لِيَتَفَقَّهُوا** ﴾ الضمير للمقيمين مع النبي ﷺ ، قاله قتادة ومجاهد ، وقال الحسن : هم للفرقة النافرة ، واختاره الطبري ومعنى ﴿ **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** ﴾ أي يتبصروا ويتيقنوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين.

قلت : قول مجاهد وقتادة أبين ، أي لتتفقه الطائفة المتأخرة مع رسول الله ﷺ عن النفور في السرايا ، وهذا يقتضي الحث على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والالتزام ، إذ ليس ذلك في قوة الكلام ، وإنما لزم طلب العلم بأدلته ، قاله أبو بكر بن العربي.[٢]

طلب العلم ينقسم إلى قسمين : فرض على الأعيان كالصلاة والزكاة والصيام.

وفرض كفاية ، كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه ، إذ لا يصلح أن يتعلم جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سراياهم وتنقص أو تبطل معايشهم ، فتعين بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين ، وذلك بحسب ما يسره الله لعباده وقسمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته.[٣]

●●●●●

١- سورة الأنبياء آية ٧

٢- تفسير الطبري ٧٠/١١ بتصرف.

٣- تفسير القرطبي ٢٩٣/٨ بتصرف.

سورة يونس

٢٠- قال تعالى :

﴿ ألاَ إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١)

قال في تفسيرها : هي عامة لا يختص بها شخص بعينه ، أو جنس محدد أو طائفة خاصة ، بل هي مطروحة أمام البشر جميعاً ، فالولاية في كل أتباع الرسل **﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** (٢) ولا يوجد بعد الأنبياء شخص بعينه ولي لله ، لأنه لا بد أن يقع في المعصية. !!

ونقول في الآية : **﴿ ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾** أي في الآخرة **﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** لفقد الدنيا ، وقيل : **﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** أي من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضي عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ، قال الله تعالى **﴿ إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾** (٣) أي عن جهنم مبعدون ، إلى قوله **﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ... ﴾**

وروي عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ سئل : من أولياء الله ؟ فقال : " الذين يذكر الله برؤيتهم "

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى : قيل : يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم ؟ قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها ، فو الله إن وجوههم لنور ، وإنهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ **﴿ ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**

١- سورة يونس أية ٦٢ ، ٦٣

٢- سورة آل عمران آية ٦٨

٣- سورة الأنبياء آية ١٠١

وقال علي بن أبي طالب ﷺ : **أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر ، عمش العيون من العبر ، خمص البطون من الجوع ، يبس الشفاه من الذوي** ، وقيل ﴿ **لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ في ذريتهم لأن الله يتولاهم ﴿ **وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ على دنياهم لتعويض الله إياهم في أولادهم وأخراهم لأنه وليهم ومولاهم.

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ هذه صفة أولياء الله تعالى ، مؤمنون بالله تعالى ، ويتقون الشرك والمعاصي ، ابتغاء مرضاة الله ، فهل ينطبق هذا الوصف على البشر جميعاً ، وهل اليهود والنصارى يحذرون الشرك والمعاصي ؟ ! ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [1] والبشرى لها معان منها : الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، وهي البشارة التي تبشر بها الملائكة المؤمن في الدنيا عند الموت ، مع السلام عليه بالولاية ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ** ... ﴾ [2] وهي ما يبشرهم الله تعالى في كتابه من جنته وكريم ثوابه لقوله تعالى ﴿ **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ** ﴾ [3] كذا قال ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ [4]

﴿ **لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** ﴾ أي لا خلف لمواعيده ، وذلك لأن مواعيده بكلماته

﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ أي ما يصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم.[5]

•••••

١- سورة يونس آية ٦٤

٢- سورة النحل آية ٣٢

٣- سورة التوبة آية ٢١

٤- سورة البقرة آية ٢٥

٥- تفسير الطبري ١٣٣/١١ بتصرف ، وابن كثير ٤٢٢/٢ : ٤٢٤ بتصرف.

سورة هود

٢١- قال تعالى :

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ (١)

قال ابن منصور : أي يعمل كل فريق بما يعتقده صواباً وينتظر الجميع حكم الله تعالى. !!

ويقول ابن كثير في الآية : يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا.

﴿ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ أي فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلَى والله عزيز حكيم.(٢)

فهناك إجماع من المفسرين على أن الآية تهديد ووعيد ، وليس كما زعم ابن منصور ، في الاعتقاد بصواب ما يفعلون مع إرجاء الحكم إلى الله تعالى.

●●●●●

١- سورة هود آية ١٢١ ، ١٢٢

٢- تفسير ابن كثير ٤٦٦/٢

سورة يوسف

٢٢- قال تعالى :

﴿ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [١]

قال ابن منصور : بمعنى التحاكم القضائي ، وليس مقصوداً به على الإطلاق ما يتردد في التراث من أنه الحكم السياسي أو الحاكمية. !!

نقول : والهدف مما يقوله ذاك الأفاك واضح ، في إنكاره جانب الحكم والشريعة ، ولكن هل يضير السحاب نبح الكلاب ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ لا ينبغي أن يكون السلطان أو الحكم إلا لله ، كما لا ينبغي أن تكون الطاعة والعبادة إلا لله ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته ، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية ، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ، سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب أو هيئة أو أمة ، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية ، ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفراً بواحاً ، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى بحكم هذا النص وحده ، وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم وتجعله منازعاً لله في أولى خصائص ألوهيته – سبحانه – فليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من إله غيري ، أو يقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قالها فرعون جهرة ، ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية ، ويستمد القوانين من مصدر آخر ، وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية – أي التي تكون هي مصدر السلطات – جهة أخرى غير الله سبحانه .. ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية.

١- سورة يوسف آية ٤٠

والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله ، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته ، إنما مصدر الحاكمية هو الله ، وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة ، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية ، إنما يملكه الله وحده ، والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه ، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان.

ويوسف عليه السلام يعلل القول بأن الحكم لله وحده فيقول : ﴿ **أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾. [1]

●●●●●

١- في ظلال القرآن ٤/١٩٩٠ بتصرف.

سورة النحل

٢٣- قال تعالى :

﴿ ويَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [١]

قال ابن منصور : أي بعد النبي هناك شهيد على كل مجتمع من داخل المجتمع نفسه. !!!

وتفسير الآية كما قال ابن كثير : يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ **﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ ﴾** يعني أمتك ، أي اذكر لهم ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية **﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾** [٢] وهي كقوله تعالى : **﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾** [٣] أ.هـ [٤]

فهو المشهد يبدأ بموقف الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم في الدنيا من أقوامهم من تبليغ وتكذيب ، والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول.

وفي ظل هذا المشهد المعروض للمشركين ، والموقف العصيب الذي يكذب الشركاء فيه شركاءهم ، ويستسلمون لله مبتدئين من دعوى عبادهم الضالين ، يبرز السياق شأن الرسول مع مشركي قريش يوم يبعث من كل أمة

١- سورة النحل آية ٨٩

٢- سورة النساء آية ٤١

٣- سورة النحل آية ٨٤

٤- تفسير ابن كثير ٥٨٢/٢ بتصرف.

شهيد ، فتجيء هذه اللمسة في دقتها وقوتها ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾.[١]

وقال القرطبي : هم الأنبياء شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعوهم إلى الإيمان. وقيل في كل زمان شهيد وإن لم يكن نبياً ، وفيهم قولان : أحدهما ، أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء. الثاني : أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه.

وكما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ **﴿ يدعي نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب. فيقول : هل بلغت ، فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ. ويكون الرسول عليكم شهيداً ، فذلك قوله عز وجل ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾** [٢]

وفي رواية **﴿ فتقول تلك الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول لهم الرب سبحانه : كيف تشهدون على من لم تدركوا ، فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولاً وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصت علينا أنهم قد بلغوا فشهدنا بما عهدت إلينا ، فيقول الرب : صدقوا ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾** والوسط : العدل **﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾**.[٣]

وقال الطبري : يقول تعالى ذكره **﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾** يقول : نسأل نبيهم الذي بعثناه إليهم للدعاء إلى طاعتنا. وقال **﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾** لأنه تعالى ذكره كان يبعث إلى الأمم أنبياءها منها ، ماذا أجابوكم ، وما ردوا عليكم ؟[٤]

●●●●●

١- في ظلال القرآن ٢١٨٨/٤ بتصرف.

٢- سورة البقرة آية ١٤٣

٣- تفسير القرطبي ١٦٤/١٠

٤- تفسير الطبري ١٦١/١٤

سورة الإسراء

٢٤- قال تعالى :

﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ... ﴾ (١)

قال ابن منصور : معناها قصر الدعوة بالهداية على من يسعى إليها طالباً الهداية كقوله تعالى ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ (٢) يعني إذا أحسست أن التذكرة ستنفع فقم بها وإلا فلا تعرض نفسك للتعب والشقاء مع من يرفض الحق. !!

ونقول : ليست الآية كذلك ، ولم ترد الآية في باب الدعوة أصلاً ، وإنما هي تقرر حقيقة ألا وهي : "أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحمل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ، ﴿ ومن ضل ﴾ أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد فإنما يجني على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه ، ولذا قال بعدها ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ولا يجني جان إلا على نفسه". (٣)

"فالآية تبين التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ، إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها ، وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد ، إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزى كل بعمله ، ولا يسأل حميم حميماً". (٤)

قال القرطبي : "أي إنما كل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره ، فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضل فعقاب كفره عليه". (٥)

١- سورة الإسراء آية ١٥

٢- سورة الأعلى آية ٩

٣- تفسير ابن كثير ٢٠/٣ بتصرف.

٤- في ظلال القرآن ٢٢١٧/٤ بتصرف.

٥- تفسر القرطبي ٢٣٠/١٠

قال الطبري : يقول تعالى ذكره ، من استقام على طريق الحق فاتبعه ، وذلك دين الله الذي ابتعث به نبيه محمداً ﷺ ﴿ **فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** ﴾ يقول : فليس ينفع بلزومه الاستقامه وإيمانه بالله ورسوله غير نفسه ﴿ **وَمَنْ ضَلَّ** ﴾ يقول : ومن جار عن قصد السبيل ، فأخذ على غير هدى ، وكفر بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله من الحق فليس يضر بضلاله وجوره عن الهدى غير نفسه ، لأنه يوجب لها بذلك غضب الله وأليم عذابه.

وإنما عنى بقوله ﴿ **فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ فإنما يكسب إثم ضلاله عليها لا على غيرها.[1]

●●●●●

١- تفسير الطبري ٥٣/١٥ ، ٥٤ بتصرف.

سورة الكهف

٢٥- قال تعالى :

﴿ وقُلِ الحقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [١]

يقول ابن منصور : أي عليه أن يعلم أنه يقول الحق من الله ، ثم لهم المشيئة الكاملة في الإيمان أو في الكفر وعليهم تحمل المسئولية ، أي كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ [٢]

أي أن مشيئته لم تتدخل لحمل الناس على الإيمان ، ولو شاء لكان الناس جميعاً مؤمنين.

والصواب كما قال ابن كثير : "يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وقل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أي رصدنا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي سورها".[٣]

وقال القرطبي : قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فإليه التوفيق والخذلان ، وبيده الهدى والضلال ، يهدي من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إليّ من ذلك شيء ، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ، فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا ، وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد ، أي إن كفرتم فقد أعد لكم النار ، إن آمنتم فلكم الجنة. وبنحوه قال الطبري.[٤]

●●●●●

١- سورة الكهف آية ٢٩

٢- سورة الأنعام آية ٣٥

٣- تفسير ابن كثير ٨١/٣

٤- تفسير القرطبي ٣٩٣/١٠ ، والطبري ٢٣٧/١٥ بتصرف.

سورة الأنبياء

٢٦- قال تعالى :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (١)

قال ابن منصور : إنها آية تنفي الشفاعة في الآخرة للنبي ﷺ ولغيره ، كما أنه ليس من القسط أن تنعدم المساواة بين المسلم والمسيحي. !!

والحق أن الآية لا تنفي الشفاعة ، وإنما تذكر جانباً من عدل الله عز وجل ، حيث لا ينقص من إحسان محسن ، ولا يزاد في إساءة مسيء ، ولكن هذا لا يمنع من فضل الله عز وجل على عباده المؤمنين ، ومثاله حديث البطاقة . قال ابن كثير رحمه الله : أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ، وقوله **﴿ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾** ، كما قال تعالى **﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾** (٢) وقال : **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾** (٣) وقال لقمان : **﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾** (٤) ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : **﴿ كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ﴾** (٥)

١- سورة الأنبياء آية ٤٧

٢- سورة الكهف آية ٤٩

٣- سورة النساء آية ٤٠

٤- سورة لقمان آية ١٦

٥- حديث صحيح.

وقوله تعالى ﴿ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ يقول الطبري : فلا يظلم الله نفساً ممن ورد عليه منهم شيئاً بأن يعاقبه بذنب لم يعمله أو يبخسه ثواب عمل عمله وطاعة أطاعه بها ، ولكن يجازي المحسن بإحسانه ، ولا يعاقب مسيئاً إلا بإساءته.

﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ يقول : وإن كان الذي من عمل الحسنات أو عليه من السيئات وزن حبة من خردل ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ يقول : جئنا بها فأحضرناها إياه ، أو كتبناها وأحصيناها له أو عليه ، ثم يعفو إن شاء أو يأخذ ، ويجزي بما عمل من طاعة.(١)

وكيف يحق لابن منصور وأمثاله أن ينكروا الشفاعة بمثل هذه الآية أو غيرها ، أو بمثل الآيات التي ذكرت قسم الشفاعة المنفية ؟

في حين أنه وردت عشرات الآيات والأحاديث التي تثبت الشفاعة ، على نحو فصلنا فيه القول في غير هذا الموضع ، وهل يمكن أن تؤخذ أحكام الدين من نص واحد دون سائر النصوص التي في الباب ، فضلاً عن أن تفهم على غير وجهها ، وتفسر بغير المراد منها ، وتوضع في غير موضعها.

●●●●●

---

١ - تفسير بن جرير الطبري.

سورة الحج

٢٧-قال تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١)

قال ابن منصور : فالآية تدل على رد العدوان والدفاع عن النفس حتى لا تهدم بيوت العبادة للنصارى واليهود والمسلمين. !!

نقول : نعم ، إن الآية تدل على رد العدوان والدفاع عن النفس ، وهذه أولى الآيات التي كانت إذناً بالجهاد بعد أن صبر المسلمون طويلاً ، طوال الفترة المكية ، وحتى استقرت بهم الأمور في المدينة المنورة ، فاختار الله عز وجل لهم – بحكمته – التوقيت الصائب الذي يقاتلون فيه دفاعاً عن أنفسهم بعدما طال صبرهم ، وبعد ما ظلمهم عدوهم ، وأخرجهم من ديارهم ، وفتنهم في دينهم.

فهذه واحدة من الأسباب المبيحة للجهاد ، ولكن ليست وحدها ، بل أمر الله عز وجل بالقتال في سبيله لنشر دينه ، والقضاء على معالم الكفر ومظاهر الشرك.

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه ﴾ (٢) وكذلك أمر الله تعالى بقتال أئمة الكفر الذين يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون أتباعهم من دخول الإسلام ، ويحدون من حريتهم ، ويحجرون على اختيارهم فقال تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ (٣) كما أمر الله تعالى

١- سورة الحج آية ٣٩ ، ٤٠

٢- سورة الأنفال آية ٣٩

٣- سورة التوبة آية ١٢

بالقتال رداً لعدوان المعتدين ، كذلك لتأديب الناكثين ، وهو أيضاً من أجل تأمين الدين ، واعتقاد المؤمنين ، وحماية الدعوة وإعانة المظلومين ، إن هدف الجهاد في الإسلام هم حرب السلطات الطاغية ، والفتن المضللة حتى تتوطد في الأرض حرية الضمير والعقل ، فلا يذل حق ولا يهون إيمان ، حتى تكون هناك حرية الاعتقاد ، وحتى يزول الطغيان ، وننتصر على الظالمين.

إن الجهاد دفاع عن حق النفس والأهل والوطن والمجتمع والدين ، إنه ليس تسلطاً ولا استعباداً وليس دماراً ولا إفساداً ، ولا احتلالاً أو استغلالاً ، إنما فرض الإسلام الجهاد ليحرر اختياراً ، لا ليكره مختاراً.

إن المسلمين في فتوحاتهم وجهادهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصلحته على حساب أي شيء ، ولم يخرجوا ليؤسسوا امبراطورية للعرب كامبراطورية الفرس والروم ، لا ، لا .. إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

-ولم يبخل المسلمون بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد ، وكانوا يدعون إلى الله قبل أن يجاهدوا وكلاهما في سبيل الله ، ولكن الأغبياء لا يفهمون ، وابن منصور لم يترك شعيرة ولا شريعة من شعائر وشرائع الإسلام إلا لمزها وطعن فيها ، بما لم يفعله أساتذته من المستشرقين أو غيرهم ، فالله أكبر ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴾ (١)

●●●●●

١- سورة الأنبياء آية ١٨

سورة الفرقان

٢٨- قال تعالى :

﴿ فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ (١)

قال ابن منصور : الجهاد في مصطلح القرآن يعني النضال ابتغاء مرضاة الله بالنفس والمال ، وقد يكون بالدعوة السلمية بمجرد قراءة القرآن. !!

نقول : نعم ، هذا نوع من الجهاد ، هو جهاد الكلمة ، هو الدعوة إلى الله تعالى ، هو الصدع بالحق ، بهذا القرآن ، في وجوه الكافرين ، على الرغم من كراهيتهم ذلك ، إنه الجهاد بالكلمة الذي يشرح منهج الإسلام ، ويتلو كتابه ، ويدع الناس بعد هذا البيان أتم ما يكونون حرية في أخذه أو تركه **﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾** (٢) كما قال تعالى : **﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا ، قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ... ﴾** (٣) نعم آمنوا إذا شئتم ، أو ابقوا على إنكاركم له وكفركم به إذا شئتم ، لن يجبركم أحد على اعتناق ما تكرهون.

نعم ، إنها دعوة للإيمان عن طريق المعرفة الحرة ، والاقتناع المجرد ، لأن الإسلام ما قام يوماً – ولن يقوم أبداً – على إكراه ، لأنه واثق من نفاسة تعاليمه وجودة شرائعه فهذا أساس دعوته ، ومنطلق جهاده ، ولكن في عراك الأحياء على ظهر الأرض لشتى الأسباب قد يُجر الإسلام جراً لقتال لم يشعل هو ناره ، ولم يبدأه ، وإنما جاء رد فعل ليكون رداً لعدوان ، ودفعاً لفساد ، ومن هنا فإن هذه الآية ليست وحدها في باب الجهاد ، حتى ينحصر الجهاد في الكلمة وتلاوة القرآن ، كما يريد أن يفهمنا ابن منصور ، وإنما هذا نوع من الجهاد وليس كل الجهاد ، على نحو ما سبق بيانه أو الإشارة إليه ، نعم ... النبي ﷺ

١- سورة الفرقان آية ٥٢

٢- سورة الكهف آية ٢٩

٣- سورة الإسراء آية ١٠٦ ، ١٠٧

جاهد بالقرآن ، ولكن أبى عليه أعداؤه إلاّ أن يعاملوه بسياسة الصلف والتحدي التي لا يحسن الأقوياء غيرها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (١) إن هذه السياسة فرضت على النبي الصبور المكافح أن ينتصب للدفاع عن رسالته ، وعن المستضعفين الذين اضطهدوا معه لاعتناقها ، وإذا كنت تمشي في الظلام ومعك مصباح يضيء لك الطريق ، فإنك قد ترفع مصباحك ليهتدي معك غيرك ، وإن كره أحد الانتفاع بسناك فليتعسف السيرة وحده ، وليتعرض للحفر والمهالك ما شاء له هواه ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ لكن ما العمل إذا حاول سفيه يهوى الظلمة أن يكسر مصباحك ، ويطفئ شعاعك ؟ أليس من حقك أن تقاتله لتستبقي الهدى لك ولغيرك ؟ إن ذلك ما فعله محمد ﷺ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢)

●●●●●

١- سورة إبراهيم آية ١٣

٢- سورة الصفة الآيات ٧ : ٩

سورة القصص

٢٩- قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [1]

يقول ابن منصور : هم بنوا إسرائيل – أي قوم موسى – إذن كان قوم موسى من أهل مصر.

يريد أن يقول لنا ابن منصور ، إن اليهود لهم الحق في مصر ، فمصر بلدهم ، ونحن ضيوف عليهم ، أو أخذنا البلد منهم ، أو يريد ابن منصور أن يمنح اليهود حق الجنسية المصرية ، بنص من القرآن ، فهل – يا ترى – كم أخذ ابن منصور على تلك الفتوى ؟ وما الذي يريده ابن منصور ومن ورائه مركز ابن خلدون منا ومن هذا البلد ، أيمكن لهذا الحد بعد أن باع ابن منصور دينه وضميره ، يبيع بلده ووطنه ؟ أوَ هذا أمر يمكن السكوت عليه ؟ أو الرضى به ؟ أو المساومة فيه ؟ إنها إلماحة إلى خطورة الأمر ، وإشارة إلى فداحة الخطب ، لعلنا ندرك الأمر ونتدارك الخطب ونحتويه قبل فوات الأوان !!

ونقول لابن منصور ولكل عميل لأعداء الوطن والإسلام ، لا .. ما كان بنوا إسرائيل من أهل مصر ، وإنما سكنوا مصر بعض الوقت ، فهم دخلاء عليها وليسوا من أهلها ، ولذلك كانوا طائفة وحدهم ، فعبر القرآن عن أهل مصر الحقيقيين بقوله : **﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾** وعبر عن الغرباء النازحين إليها ، ومعاملة فرعون لهم بقوله : **﴿ يستضعف طائفة منهم ... ﴾** فهي طائفة سكنت مصر بعض الوقت ، عزت وتمكنت أيام نبي الله يوسف عليه السلام الذي أدخلهم مصر أيام وزارته ، ولكن هانوا وذلوا بعد ذلك ، وبلغ الأمرَ مداه أيام فرعون موسى ، فكان من شأنهم ما قصه الله تعالى عن حالهم ، حيث استعملهم

١- سورة القصص آية ٤

فرعون في أخس الأعمال وكدهم ليلاً ونهاراً ، ومع هذا يقتل أبناءهم ، ويستحيي نسائهم ، إهانة لهم واحتقاراً ، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف – هو وأهل مملكته – من أن يزول ملكهم على يديه ، فأبى الله تعالى إلا أن يربى في بيته ويأكل على مائدته ، فسبحان الفعال لما يريد ، حيث نحن نريد ، وهو يريد ، ولا يكون إلا ما يريد.

ألا يتعظ ابن منصور ؟ ألا يتراجع مركز ابن خلدون عن مكائده للدين والوطن ؟ !! ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [١]

●●●●●

١- سورة الأنفال آية ٣٠

سورة سبأ

٣٠- قال تعالى :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ، قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (١)

فسرها – ابن منصور – على ظاهرها ينسب الإجرام للمسلمين ، ويطالبنا بانتظار الحكم يوم القيامة حيث يحكم بيننا ربنا فيما نحن فيه مختلفون.

بل إن الله أمرنا حين نرجئ الحكم في العقائد إليه يوم القيامة أن نتسامح مع المختلفين معنا في الدين والعقيدة **﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ ، فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾** (٢) كما قال تعالى **﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾** (٣)

وفي ردنا على هذا الهراء ، نقول : ليس الأمر كذلك ، وإنما الآية في معناها ، كما قال ابن كثير: يقول تعالى مقرراً تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضاً فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أي بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

وقوله تعالى : **﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾** هذا من باب اللف والنشر ، أي واحد من الفريقين مبطل والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى ، ولهذا قال : **﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾**

١- سورة سبأ الآيات ٢٤ : ٢٦

٢- سورة الزخرف آية ٨٨ ، ٨٩

٣- سورة الحجر آية ٨٥

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين ، والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد ، وقال عكرمة وزياد بن أبي مريم معناها : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفي ضلال مبين.

وقال الطبري : واختلف أهل العربية في وجه دخول ﴿ أو ﴾ في هذا الموضع ، فقال بعض نحوي البصرة : ليس ذلك لأنه شك ، ولكن هذا في كلام العرب على أنه هو المهتدي ، قال وقد يقول الرجل لعبده : أحدنا ضارب صاحبه ، ولا يكون فيه إشكال على السامع أن المولى هو الضارب.

وقال آخر منهم : معنى ذلك : إنا لعلى هدى ، وإنكم إياكم في ضلال مبين ، لأن العرب تضع (أو) في موضع واو الموالاة ، قال جرير:

أثعلبة الفوارس أو رياحاً   عدلت بهم طهية والخشابا

قال يعني ثعلبة ورياحاً ، قال : وقد تكلم بهذا من لا يَشُك في دينه ، وقد علموا أنهم على الهدى ، وأولئك في ضلال ، فيقال : هذا وإن كان كلاماً واحداً على جهة الاستهزاء ، فقال هذا لهم ، وكما تقول للرجل يكذبك ، والله إن أحدنا لكاذب ، وأنت تعنيه ، وكذبته تكذيباً غير مكشوف ، وهو في القرآن وكلام العرب كثير ، أن يوجه الكلام إلى أحسن مذاهبه ، إذا عرف ، كقول القائل لمن قال ، والله لقد قدم فلان ، وهو كاذب ، فيقول : قل : إن شاء الله ، أو قل : فيما أظن ، فيكذبه بأحسن تصريح التكذيب ، وهذا من أساليب الدعوة الحسنة ، فالصواب من القول في ذلك أن ذلك أمر من الله لنبيه بتكذيب من أمره بخطابه بهذا القول بأجمل التكذيب فلهذا بمعنى صير الكلام بأمر. والله أعلم.

●●●●●

سورة فاطر

٣١- قال تعالى :

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (١)

قال ابن منصور : السنة تعني الشرع ، وحينئذ تكون منسوبة لله تعالى ، وبالنسبة للنبي ﷺ هو صاحب القدوة والأسوة.

يريد من وراء ذلك نفي سنة النبي ﷺ !!

وأما ما استدل به فإن المراد بالسنة هنا الطريقة ، والجمع سنن ، وهنا مضافة إلى الله تعالى ، كما أضافها في موضع آخر إلى رسله فقال **﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾** (٢) فأضاف إلى القوم لتعلق الأمر بالجانبين ، وهو كالأجل ، تارة يضاف إلى الله **﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾** (٣) وتارة إلى القوم **﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾** (٤)

فالسنة هي الطريق المستقيم ، وفلان على السنة أي على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء ، قال الهذلي :

فلا تجز عن سنة أنت سرتها   فأول راض سنة من يسيرها

والسنة : الإمام المتبع المؤتم به ، يقال : سن فلان سنة حسنة وسيئة ، إذا عمل عملاً اقتدي به فيه من خير أو شر قال لبيد:

من معشر سنت لهم آباؤهم   ولكل قوم سنة وإمامها

والسنة الأمة ، والسنن الأمم ، عن المفضل ، وأنشد :

ما عاين الناس من فضل كفضلهم   ولا رأوا مثلهم في سالف السنن

١- سورة فاطر آية ٤٣

٢- سورة الإسراء آية ٧٧

٣- سورة العنكبوت آية ٥

٤- سورة الأعراف آية ٣٤

وقال الزجاج : والمعنى أهل سنن ، فحذف المضاف -يعني قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ... ﴾ [١]

وقال أبو زيد : أمثال ، وقال عطاء : شرائع ، وقال مجاهد : المعنى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ... ﴾ يعني بالهلاك فيمن كذب قبلكم كعاد وثمود.[٢]

إذاً فالسنن لها في لغة العرب معاني ، قد جهلها ابن منصور الذي تخرج من كلية اللغة العربية ، وا أسفاه ، كما قد جهل معنى السنة في الشرع.

وقد عرفها العلماء بعدة تعريفات:

فقال الأصوليون : هي ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

وقال المحدثون : ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، أو صفة خلقية في حركة أو سكون أو يقظة أو منام ، وكذا ما أضيف إلى الصحابة والتابعية من أقوال أو أفعال.

والسنة عند الفقهاء هي : ما يثاب المسلم على فعلها ، ولا يعاقب على تركها.

فهل يمكن إلغاء كل هذه المعاني لتصبح السنة هي سنة الله فقط بمعنى شرع الله ، وبجرة قلم من ابن منصور تلغى سنة رسول الله ﷺ ، وينطبق عليه وعلى أمثاله قوله ﷺ ﴿ **رب رجل شبعان متكئ على أريكته ، يقول ما وجدنا في كتاب الله من حلال حللناه ، وما وجدنا في كتاب الله من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله ، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه** ﴾

●●●●●

١- سورة آل عمران آية ١٣٧

٢- تفسير القرطبي.

سورة الزمر

٣٢- قال تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (١)

قال ابن منصور : كما أن للنبي حقه في أن يخلص دينه لله وحده فعليه أن يحترم حق خصومه في أن يعبدوا غير الله ، أي جعل لهم مشيئة ، ونزلت سورة كاملة في آخرها ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٢) ولكن هذا ليس صحيحاً لأن قوله تعالى ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ إنما أراد به التهديد والتبري منهم فهو أمر تهديد ووعيد وتوبيخ كقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ... ﴾

وقيل : منسوخة بآية السيف. قاله القرطبي.

وقال الطبري : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد لمشركي قومك : الله أعبد مخلصاً ، مفرداً له طاعتي وعبادتي ، لا أجعل له في ذلك شريكاً ، ولكني أفرده بالألوهية ، وأبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة ، فاعبدوا أنتم أيها القوم ما شئتم من الأوثان والأصنام ، وغير ذلك مما تعبدون من سائر خلقه ، فستعلمون وبال عاقبة عبادتكم ذلك إذا لقيتم ربكم. إنها ليست دعوة للكفر – كما زعم ابن منصور – إنما هي لغة تهديد ، وبيان الجزاء لمن اختار طريق الكفر ، فلا بد أن يعلم عاقبته.

وتلك قضية دندن حولها ابن منصور كثيراً ، يريد للناس أن يكفروا بالله ، وأن يعبدوا ما يشاءون دون أي حرج أو ملامة أو عقاب !!

وقد سبق أن رددنا على فهمه السقيم ، لقول الله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. ﴾

١- سورة الزمر آية ١٤ ، ١٥

٢- سورة الكافرون آية ٦

ولئن كان الأمر كما زعم ابن منصور في احترام حق الخصوم في أن يعبدوا غير الله . فماذا نقول في الآيات التي حكمت على الكافرين بالنار والعذاب المهين ، إذا لم يكن هناك جزاء على اختيار طريق الإيمان أو الكفر ؟!

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [١]

وقال تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ [٢]

وقال تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [٣]

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [٤]

١- سورة الكهف الآيات ٢٩ : ٣١

٢- سورة الأعراف آية ٤٤ ، ٤٥

٣- سورة الأعراف آية ٥٠ ، ٥١

٤- سورة النساء آية ١٣ ، ١٤

وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢)

١- سورة البقرة آية ٢٤ ، ٢٥

٢- سورة فاطر آية ٧

٣٣- قال تعالى :

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ (١)

قال ابن منصور : دلت على أنه لا يخرج المسلم من النار ، ويدخل الجنة. !!

ونقول بل هذه الآية في المشركين ، وليست في المسلمين.

يقول القرطبي : كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قوم ، وقد سبقت لهم من الله الشقاوة ، فنزلت هذه الآية ، قال ابن عباس : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف عن عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان ، وكرر الاستفهام في قوله ﴿ أفأنت.. ﴾ تأكيداً لطول الكلام ، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون ﴾ (٢)

وقال الطبري : يعني تعالى ذكره بقوله ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ أفمن وجبت عليه كلمة العذاب في سابق علم ربك – يا محمد – بكفره به ، حدثنا بشر قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد عن قتادة ، قوله ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ قال : بكفره.

وقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : أفأنت تنقذ يا محمد من هو في النار من حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ، فاستغنى بقوله ﴿ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ عن هذا ، والمعنى : أفأنت تهدي يا محمد من قد سبق له في علم الله أنه من أهل النار ، إلى الإيمان ، فتنقذه من النار بالإيمان ؟ لست على ذلك بقادر.(٣)

١- سورة الزمر أية ١٩

٢- تفسير القرطبي.

٣- تفسير القرطبي.

وقال ابن كثير : يقول تعالى أفمن كتب الله أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله ، لأنه من يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضل له.[1]

فأين هذا مما ذهب إليه ابن منصور ومن وافقه في ضلاله ، ممن تركوا لأنفسهم العنان ، لا يحكمون أنفسهم يوماً بلجام.

١- تفسير ابن كثير.

٣٤- قال تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١)

قال ابن منصور : فالحكم بين اختلافات العباد في العقائد والمذاهب والأديان لا يكون إلا لله تعالى ، وقد جعل لهذا الحكم يوماً اسمه يوم الدين ، إذن ننتظر حتى يحكم الله بيننا فيما نحن فيه مختلفون ، ننتظر حتى يوم الفصل.

ونسارع بالرد على إفك ابن منصور فنقول له : هل معنى ذلك أننا لا نحكم لمؤمن بإيمان ، ولا على كافر بكفر حتى يوم القيامة ؟! ومعنى ذلك أننا ينبغي أن نشك في إيماننا. فلا ندري أنحن على حق أم على باطل ؟ ونشك في كفر الكافرين ، فنظن أنهم على حق ؟! ومعنى ذلك أيضاً أن نرد كل أحكام الله تعالى التي جاءت في القرآن بإيمان من آمن ، وبكفر من كفر ، أو نرد على الله حكمه في قوله عن صنف من الناس ﴿ .. **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** .. ﴾ (٢) وعن صنف آخر ﴿ .. **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** .. ﴾ (٣)

وكذا نداءه لأناس ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** .. ﴾ ولآخرين ﴿ **قل يا أيها الكافرون** .. ﴾ فهل نرد كل ذلك ، ونلغيه ، ونزعم أنه لا ينبغي الحكم على أحد بالكفر ، ولا لأحد بالإيمان.

هذا .. وماذا يقول ابن منصور في رجل أنكر وجود الله تعالى ؟ هل ينبغي أن يتوقف في تكفيره إلى أن يحكم الله بين عباده ؟ أو رأى رجلاً يسجد لصنم ، أو يعبد بوذا مثلاً ، فيقول بعدم كفره لأنه لا ينبغي الحكم على العباد حتى يوم الدين ، أو أن إنساناً كان مسلماً فارتد عن الدين بأن كفر بالقرآن

١- سورة الزمر آية ٤٦

٢- سورة الأنفال آية ٤

٣- سورة النساء آية ١٥١

والسنة أو بشيء منهما مما هو معلوم من الدين بالضرورة ، فهل نقول نرجئ الحكم عليه حتى يوم الفصل ؟!

إلى آخر هذه الأمثلة التي توضح القضية وتبين زيف ما اعتقده ابن منصور ورفقاءه وأتباع مركز ابن خلدون ، وتلامذة (فرج فوده) وإخوان (نصر أبو زيد).

إنهم يغيرون معالم الدين ، ويرجئون الأحكام إلى يوم الدين ، لأنهم هم الذين شككوا في القرآن ، وأنكروا السنة ، ونفوا الشفاعة ، وتنكروا لثوابت الدين ، وكذلك والوا اليهود ، وأرضوا النصارى على حساب الدين ، وحساب المسلمين ، فطالبوا بوحدة الأديان ، واعتقاد أن ما عليه اليهود والنصارى حق ، وأنه لا يجوز التفرقة بيننا وبينهم ، على نحو ما سبق ذكره ، واستدل على باطله بكتاب الله ، فكان ذلك من الحق الذي يراد به باطل.

●●●●●

٣٥- قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١)

قال ابن منصور : أي الذين اخترعوا الأحاديث والذين روحوا لها ويصدون عن سبيل الله وكتابه ويبغونها عوجاً هم أشد الناس خزياً يوم العرض على الله تعالى.

نقول : ونحن لا ننكر أن الذين كذبوا الأحاديث على رسول الله ﷺ قد توعدهم الرسول ﷺ بقوله : ﴿ **ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار** ﴾ (٢)

وإن كنا نظن أن كلام ابن منصور لا يقصد به الذين كذبوا الأحاديث على رسول الله ﷺ وإنما يقصد أهل السنة الذين تناقلوا أحاديث النبي ﷺ شفوياً ، ثم دونوها في الكتب الصحيحة ، فهذا واضح من كلامه ، فإن كان هؤلاء أشد الناس خزياً يوم العرض على الله فمن الناجي إذن ؟!! وكيف يحكم ابن منصور على أهل الحديث بهذا الحكم ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ **نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ، فبلغها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع ..** ﴾ (٣)

هذا والآية التي استشهد بها في غير موضعها ، إنها في المشركين ، وكما يقول الطبري : يقول تعالى ذكره ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى** ﴾ يا محمد هؤلاء ﴿ **الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ** ﴾ من قومك ، فزعموا أن له ولداً ، وأن له شريكاً ، وعبدوا آلهة من دونه ﴿ **وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ..** ﴾.(٤)

١- سورة الزمر آية ٦٠

٢- رواه البخاري.

٣- رواه البخاري ومسلم.

٤- تفسير الطبري.

ويقول ابن كثير : يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى هاهنا ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ** ﴾ أي في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿ **وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ** ﴾ أي بكذبهم وافترائهم ، وقوله تعالى : ﴿ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ أي أليست جهنم كافية لهم سجناً وموئلاً لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبي حاتم .. عم عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ **إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً من النار في واد يقال له : بولس من نار الأنيار ، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال** ﴾ [1]

●●●●●

١- تفسير ابن كثير.

سورة الفتح

٣٦- قال تعالى :

﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [١]

قال ابن منصور : التعزير عند الفقهاء هو الإهانة والعقوبة ، ولكن التعزير في القرآن بمعنى التكريم والتمجيد والتقديس والإعزاز والنصرة لله تعالى ورسوله ﷺ.

وقال القرطبي ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تعظموه وتفخموه ، قاله الحسن والكلبي ، والتعزير : التعظيم والتوقير. وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه.

ومنه – في لغة العرب – التعزير في الحد ، لأنه مانع ، قال القطامي :

الأبكرت مى بغير سفاهة تعاتب والمودود ينفعه العزر

وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معه بالسيف ، وقال بعض أهل اللغة : تطيعوه (وتوقروه) أي يسودوه ، قاله السدي ، وقيل : تعظموه ، والتوقير : التعظيم والترزي أيضاً ، والهاء فهي للنبي ﷺ ، وهنا وقف تام ، ثم نبتدئ ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي تسبحوا لله.

وبنحو هذا التفسير قاله الطبري وابن كثير.

وما وجه الغرابة في أن تأتي كلمة (التعزير) بمعاني مختلفة ، أو حتى متناقضة ، وقد عرف هذا في لغة العرب ، وهو كثير ، فما أكثر ما ذكروا في الكلمة الواحدة المعنى وضده ، أوليست كلمة (الدين) مثلاً ، جاءت بمعنى الملك ، وكذا الطاعة ، وبمعنى القهر والسلطان ، وكذلك بمعنى التذلل والخضوع ، وبمعنى الحكم والعز ، وبمعنى الانقياد والذل. ولا تناقض بين ذلك إذا وضعت كل كلمة في موضعها ، وفهمت في سياقها.

١- سورة الفتح آية ٩

إن كثيراً من الكلمات لا يفهم معناها إلا في ظل سياقها ، الذي يختلف من موضع إلى موضع وهذا – كما قلنا – كثير جداً في كلام العرب ، وقد جاء القرآن بلغة العرب.

فكلمة الدين التي ذكرناها مثالاً قد تكون لازمة ، وقد تكون متعدية ، إما باللام أو بالباء وباختلاف الاشتقاق تختلف المعاني ، وبيانه أن كلمة (الدين) تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه "دانه يدينه" فتكون بمعنى ملكه وحكمه وساسه ودبره وقهره وحاسبه وجازاه وكافأه ، وتكون تارة من فعل متعد باللام "دان له" فتكون بمعنى أطاعه وخضع له وعبده. وتكون من فعل متعد بالباء "دان به" فيكون معناه أنه اتخذه ديناً ومذهباً أي اعتقده أو اعتاده أو تخلق به ، ونحو ذلك.

وذلك لأن الكلمة عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ، ويخضع له ، فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً .. وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمراً وسلطاناً وحكماً وإلزاماً .. وإذا نظرنا إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة.

ولذلك نقول : فما وجه الغرابة أن تأتي كلمة (تعزروه) بأكثر من معنى مختلف يختلف باختلاف السياق وإن كان في الأصل يحمل معناه ، حيث التعزير بمعنى التعظيم منه منع ونصرة ، والتعزير عقوبة فيه المنع من الفعل الذي عوقب من أجله.

ولذلك جاء في لسان العرب حول مادة هذه الكلمة "تعزير"

عزر : العَزْرُ : اللوم ، وعَزَرَه يَعْزِرُه عَزْرا وعَزَّره : رَدَّهُ

والعَزْر والتعزير : ضرب دون الحد ، لمنعه الجاني من المعاودة ، وردعه عن المعصية ، قال:

وليس بتعزير الأمير خزاية على إذا ما كنت غير مريبِ

وقيل: هو أشد الضرب ، وعَزَرَهُ : ضربه ذلك الضرب ، والعَزْرُ : المنع ، والعَزْرُ : التوقيف على باب الدين ، وكذا التوقيف على الفرائض والأحكام. وفي الحديث ﴿ ... **ثم أصبحت بنو سعد تُعَزِّرُني على الإسلام ...** ﴾

وأصل التعزير : التأديب ، ولهذا يسمى الضرب دون الحد تعزيراً إنما هو أدب ، يقال : عَزَرْتُهُ وعَزَّرْتُهُ فهو من الأضداد ، وعَزَّرَهُ : فَخَّمَهُ وعظمه ، فهو نحو الضد ، العزْرُ : النصر بالسيف ، وعَزَرَهُ عَزْراً وعَزَّرَهُ : أعانه وقواه ونصره.

قال تعالى : ﴿ **لتعزروه وتوقروه** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وعزرتموهم** ﴾ جاء في التفسير : أي لتنصروه بالسيف ، ومن نصر النبي ﷺ فقد نصر الله عز وجل. وعزرتوهم : عظمتموهم ، وقيل : نصرتموهم ، قال إبراهيم بن السَّرِيِّ ، وهذا هو الحق ، والله تعالى أعلم.

وذلك أن العَزْرَ في اللغة الرد والمنع ، وتأويل عَزَرْتُ فلاناً أي أدبته ، إنما تأويله فعلت به ما يردعه عن القبيح ، كما أن نَكَّلْتُ به تأويله فعلت به ما يجب أن ينكل معه عن المعاودة ، فتأويل عزرتموهم نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم وتمنعونهم.

ولو كان التعزير هو التوقير لكان الأجود في اللغة الاستغناء به ، فلا يتكرر ﴿ **لتعزروه وتوقروه** ﴾ والنصرة إذا وجبت فالتعظيم داخل فيها ، لأن نصرة الأنبياء هي المدافعة عنهم ، والذب عن دينهم وتعظيمهم وتوقيرهم.

قال : ويجوز تعزروه من عَزَرْتُهُ عَزْرا بمعنى عَزَّرْتُه تَعْزِيراً ، والتعزير في كلام العرب : التوقير ، والتعزير : النصر باللسان والسيف ، وفي حديث المبعث ﴿ **قال ورقه بن نوفل : إن بعث وأنا حي فسأُعَزِّرُهُ وأنصره** ﴾ ، التعزير ههنا : الإعانة والتوقير ، والنصر مرة بعد مرة ، وأصل التعزير : المنع والرد ، فكأن من نصرته قد رددت عنه أعداءه ، ومنعتهم من أذاد ، ولهذا قيل للتأديب الذي هو دون الحد : تعزير ، لأنه يمنع الجاني أن يعاود الذنب.[1]

يا بن منصور : يا خريج اللغة العربية ، تعلم اللغة العربية ، وارجع إلى لسان العرب لتدرك معاني الكلمات ومشتقاتها ومصادرها.

يا بن منصور : يا ابن الأزهر الصابئ ، عد إلى صوابك ، وعد إلى دينك أيضاً ، أسأل الله لك الهداية ، وإلا فهو العزيز المنتقم.

●●●●●

١- لسان العرب لابن منظور ج٤ ص ٢٩٢٤ ، ٢٩٢٥ بتصرف.

سورة الحجرات

٣٧- قال تعالى :

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (١)

قال ابن منصور : المكروه في مفهوم القرآن هو أفظع المحرمات وأكبر الكبائر كالقتل والزنا والكفر والفسوق ، ولكن المكروه في الفقه هو الحلال الذي يفضل الابتعاد عنه ، والمستحب هو الفرض الواجب ، وهو عند الفقهاء ما يفضل فعله.

وفي الرد نقول : حبب : حسن وزين ، أي حببه إلى نفوسكم ، وحسنه في قلوبكم.

وكره : أي بغض إليكم ، الكفر ، قال ابن عباس : يريد به الكذب خاصة.

وما المشكل في ذلك ، والكلمة لها معنى في اللغة ، ويكون لها معنى آخر في الاصطلاح وكره إليه الأمر تكريهاً : أي صيره كريهاً إليه ، نقيض حببه إليه ، فأصبح كريهاً ، ومكروهاً ، وأمر كريه أي مكروه ، ووجه كره وكريه : أي قبيح ، وهو من ذلك لأنه يكره ، وللكلمة معاني أخرى فيقال : كَرهاً وكُرهاً فتحمل معنى المشقة والتكلف والاضطرار ، فهذه معاني وردت في اللغة فما الذي يحول دون ذلك ، ثم لماذا ابن منصور لا يفرق بين المعنى اللغوي والمعني الشرعي أو الفقهي أو الاصطلاحي كما يقولون ؟!

إذا وردت الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء ، وجاءت في معنى الشرع بأنها أقوال وأفعال مخصوصة في أوقات مخصوصة ، يكون هذا من التناقض في فقه ابن منصور ؟!!

---

١ سورة الحجرات آية ٧

فالمكروه – عند الفقهاء – هو ما طلب الشارع من المكلف الكف عن فعله طلباً غير حتم ، بأن تكون الصيغة نفسها دالة على ذلك – فهي تختلف باختلاف السياق – كما إذا ورد أن الله كره لكم كذا ، أو كان منهياً عنه ، واقترن النهي بما يدل على أن النهي للكراهة لا للتحريم – أي لا بد من وجود قرينة تفرق بين مكروه ومكروه – مثل قوله تعالى : ﴿ لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [١] أو كان مأموراً باجتنابه ودلت القرينة على ذلك مثل : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [٢] فالمطلوب الكف عن فعله ، إن كانت صيغة طلبه نفسها تدل على أنه طلب حتم فهو المحرم ، وإن كانت الصيغة نفسها تدل على أنه طلب غير حتم فهو المكروه ، والقرائن هي التي تفرق بين مكروه ومكروه ، ولكن ماذا يقال في أمثال ابن منصور إلا أنهم يريدون الطعن في الدين ، وهدم معالم الإسلام ، والتنقص من شأن الفقهاء والعلماء. ومثل ما ذكرنا في كلمة "كره" يقال في كلمة "حبب" ولكن بمفهوم المخالفة.

فالمستحب له في اللغة معنى بمعنى الحسن والتزيين ، والتحبب إلى النفوس والتحسين في القلوب وله في الشرع معنى ذكره الأصوليون فقالوا : هو ما طلب الشارع فعله من المكلف طلباً غير حتم ، بأن كانت صيغة طلبه نفسها لا تدل على تحتيم ، أو اقترنت بطلبه قرائن تدل على عدم التحتيم ، فيستدل بالقرائن على نوع المطلوب ، فالمطلوب فعله قد يكون من أوجب الواجبات مثل ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وقد يكون فرضاً مثل : كتب عليكم ، وفرض عليكم ، وقضى ربك ، وقد يكون ندباً مثل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ [٣] جاء بعدها ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ [٤] فصرفت الأمر من الوجوب إلى الاستحباب ، وهكذا .. ومن كان عنده عقل فليميز ، ومن كان بقلبه مرض فنعامله معاملة العقرب !!

●●●●●

١- سورة المائدة آية ١٠١

٢- سورة الجمعة آية ٩

٣- سورة البقرة آية ٢٨٢

٤- سورة البقرة آية ٢٨٣

سورة التكوير

٣٨- قال تعالى :

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ (١)

قال ابن منصور : فالصاحب هو الذي يصحب في الزمان والمكان ، لذلك تكرر في القرآن وصف النبي بأنه صاحب المشركين. !!

ونسارع بالرد على ابن منصور بقول الله **﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾** (٢)

ما مقصود ابن منصور في هذا التعبير : بأن النبي ﷺ صاحب المشركين ؟ !!

نعم : إن الصاحب بمعنى المعاشر في اللغة ، والنبي ﷺ قد عاشر القوم وعاشروه أربعين سنة كاملة ، يعرفونه معرفة جيدة ، فليس غريباً عنهم ، أو ليس مألوفاً لديهم ، بل هم الذين لقبوه بالصادق وبالأمين على مدى أربعين سنة كاملة ، فهل يعقل أن يكذب على الله ، أو عليهم بعد ما خط الشيب عارضيه ؟ !

كما قال تعالى : **﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾** (٣) نعم .. إنه صاحبكم الذي عاشرتموه وألفتموه وعرفتموه ، فهل يحق لكم أن تتنكروا له بعد كل هذه السنين فتكذبوه ، أو تتهموه ؟ !

لو جاءكم من بلد آخر ، أو من قبيلة أخرى لحق لكم أن تنظروا في أمره وأن تعرفوا خبره وتتبينوا صدقه من كذبه ، ولكن الأمر بالنسبة للنبي

١- سورة التكوير آية ٢٢

٢- سورة التوبة آية ٦٥

٣- سورة النجم الآيات ١ : ٣

محمد ﷺ مختلف ، فيا أنتم قد عاشرتموه وعايشتموه وخبرتموه ، فهل يحق لكم أن تتهموه وتكذبوه ؟ !!

ولكن ابن منصور – شأنه في ذلك شأن هؤلاء ، يفتري الكذب على الله – فيريد بتعبيره هذا أن ينتقص من قدر النبي ﷺ ، أو ينفي معنى الصحبة المراد الذي هو بين النبي ﷺ وأصحابه الذين آمنوا به واتبعوه ، ويثبتها للمشركين.!!

اخسأ أيها الملعون فلن تعدو قدرك ، ولن يضر السحاب نبح الكلاب.

●●●●●

سورة الفاتحة

٣٩- قال تعالى :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [(١)]

قال ابن منصور : فالله وحده الذي يملك الأمر كله يوم القيامة ، والنبي نفس بشرية ينطبق عليها قوله تعالى : **﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾** [(٢)] وإذا صدر أمر من مالك يوم الدين ، فلا مجال لتبديله.

كما قال تعالى : **﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾** [(٣)] فالنبي لا يملك أن ينفع والده ولا يستطيع أن ينفع ولده ، فكيف سينفع الآخرين ؟ !!

وردنا على ذلك : بأن هؤلاء الشرذمة يحاولون إنكار شفاعة النبي ﷺ ، الثابتة المتواترة من خلال هذا النص ، وقد قال ابن كثير : في الآية : أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلا بإذن الله لمن يشاء ويرضى.

وقد قلنا لهم أكثر من مرة : إنه لا تؤخذ قضية أو يستخرج حكم من نص واحد ، بل لا بد من جميع النصوص التي وردت في الباب لاستخراج حكم صحيح.

ولذلك فتفسير ابن كثير لهذه الآية مبني على النظر في بقية الأدلة على نحو ما قال الله تعالى : **﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾** [(٤)] وقوله تعالى : **﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾** [(٥)] وقوله تعالى : **﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي**

١- سورة الفاتحة آية ٤

٢- سورة الانفطار آية ١٩

٣- سورة لقمان آية ٣٣

٤- سورة البقرة آية ٢٥٥

٥- سورة الأنبياء آية ٢٨

السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ (١)

فماذا نقول في هذه الآيات وأشباهها إذا راح ابن منصور أو غيره ينكر أمر الشفاعة يوم القيامة بصفة عامة ، أو شفاعة النبي محمد ﷺ بصفة خاصة ؟!! وهل هناك تعارض بين أن يكون الله تعالى مالكاً ليوم الدين ، ومالكاً للأمر كله وبين أن يمنح من يشاء من عباده الشفاعة بأمره وإذنه ؟!

وهل هناك تناقض بين أن يكون النبي محمد ﷺ بشراً ، وبين أن يمنحه الله تعالى منزلة تليق بمكانته السامية ، فيبعثه مقاماً محموداً تحمده الخلائق عليه ، لبيان مكانته ومنزلته عند الله تعالى ﴿ **عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا** ﴾ (٢) قال المفسرون بإجماع : هو الشفاعة ، وكذا فسره ﷺ في أحاديث متواترة عنه ، لا يجوز إنكارها ، وإنكارها كفر ، عياذاً بك اللهم.

وهذه القضية وإن كان قد سبقت إشارات في الرد عليها ، لكن تبقى لها بقية في ردنا على د/ مصطفى محمود في إنكاره الشفاعة ، إن شاء الله تعالى.

●●●●●

١- سورة النجم آية ٢٦

٢- سورة الإسراء آية ٧٩

الفهـــــرس

مسلسل	الموضـــــــوع	رقم الصفحة
	المقدمة	١
	التمهيد	٣
	مدخـــل	٥
	أولاً : الرد على الفهم الخاطئ للاستشهاد بالآيات القرآنية	٢٥
	سورة البقرة	
١	قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى ... ﴾	٢٥
٢	قال تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ... ﴾	٢٨
٣	قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ... ﴾	٣١
٤	قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ... ﴾	٣٥
٥	قال تعالى :﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... ﴾	٣٧
٦	قال تعالى : ﴿ ... ... وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾	٤٠
٧	قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾	٤١
٨	قال تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴾	٤٣
٩	قال تعالى : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾	٥٢

مسلسل	الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
	سورة آل عمران	
١٠	قال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ... ﴾	٥٥
	سورة النساء	
١١	قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ... ﴾	٥٩
١٢	قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... ﴾	٦٧
١٣	قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ... ﴾	٧٠
١٤	قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾	٧١
	سورة المائدة	
١٥	قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ... ﴾	٧٨
	سورة الأنعام	
١٦	قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ ... ﴾	٩٣
	سورة الأعراف	
١٧	قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ ... ﴾	٩٦
١٨	قال تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ... ﴾	٩٨

مسلسل	الموضـــــــوع	رقم الصفحة
	سورة التوبة	
١٩	قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ... ﴾	١٠٠
	سورة يونس	
٢٠	قال تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ... ﴾	١٠٢
	سورة هود	
٢١	قال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ...﴾	١٠٤
	سورة يوسف	
٢٢	قال تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾	١٠٥
	سورة النحل	
٢٣	قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ... ﴾	١٠٧
	سورة الإسراء	
٢٤	قال تعالى :﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ... ﴾	١٠٩
	سورة الكهف	
٢٥	قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾	١١١
	سورة الأنبياء	
٢٦	قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ... ﴾	١١٢

مسلسل	الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
	سورة الحج	
٢٧	قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ... ﴾	١١٤
	سورة الفرقان	
٢٨	قال تعالى : ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾	١١٦
	سورة القصص	
٢٩	قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ... ﴾	١١٨
	سورة سبأ	
٣٠	قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ... ﴾	١٢٠
	سورة فاطر	
٣١	قال تعالى : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾	١٢٢
	سورة الزمر	
٣٢	قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ... ﴾	١٢٤
٣٣	قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾	١٢٧
٣٤	قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ... ﴾	١٢٩
٣٥	قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ... ﴾	١٣١

مسلسل	الموضـــــــوع	رقم الصفحة
	سورة الفتح	
٣٦	قال تعالى : ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ... ﴾	١٣٣
	سورة الحجرات	
٣٧	قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴾	١٣٦
	سورة التكوير	
٣٨	قال تعالى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾	١٣٨
	سورة الفاتحة	
٣٩	قال تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾	١٤٠
	الفهرس	١٤٢

رقم الإيــداع ٢٠٠١/٤٦١٦

التاريـــــخ ٢٠٠١/٢/٢٤

حنون للطباعة ٦٣٨٤١١-٠٤٠/٦٣٨٤٥٦